إميل ناصيف

أروع ما قيل في الإخوانيات

دار الجيل

إميل ناصيف

أروع ما قيل في الإخوانيات

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المقدّمة

يُقصد بـ «الإخوانيّات»، أو «الأدب الإخوانيّ» ما يتبادله الأدباء والكتّاب فيما بينهم من رسائل أو ما يجري بينهم من نوادر، ومداعبات شعريّة، وما إلى ذلك. جاء في «المعجم المفصل في اللغة والأدب» للدكتورين اميل يعقوب وميشال عاصي ما يلي:

«الإخوانيّات مصطلح تداوله النقّاد، ودارسو الأدب لتعيين لون من ألوان الكتابة الشعريّة والنثريّة التي تندرج في إطار المراسلات المتداولة بين الأصدقاء والخلاّن، أو في نطاق استحضار طِيب العيش معًا، وتذكّر أيّام الودّ والهناء، وتأكيد الوفاء لها والالتزام بعهودها، وغير ذلك ممّا يتطارحه المتوادّون في مكاتباتهم، ويتوارد على قرائح الشعراء من ذكرى الأصدقاء أو مجالس الأحباب.

وأدب الإخوانيّات قد يأتي في قصائد مستقلّة بذاتها، وهذا نادر في الشعر عامّة، وقد يتضمّنه مقطع في قصيدة، إلاّ أنّه غالب في الرسائل التي تستأثر بمعظم ما جاء منه في العربيّة، والتي تتّسم بخصائص الأسلوب الرائج في كلّ عصر، وبتناول الموضوعات المطروحة في كلّ بيئة لغويّة أو فكريّة أو أدبيّة، فضلاً عمّا يقتضيه المقام من بثّ الشوق والحنين، وبعث الذكريات، وتقديم المجاملات، وإبراز مقدرة الكتّاب على التمكّن من أداة

التعبير اللغويّ في النثر كما في الشعر. وفي خزانة الأدب العربيّ تراث قيِّم من الإخوانيّات تضافرت على إنشائه أقلام كبار أهل القلم في مختلف المراحل الغابرة والمعاصرة».

ومع معرفتنا الواضحة بما يتضمّنه أدب الإخوانيّات، فقد حرصنا على التقديم لهذا الأدب بأبواب على النحو التالي:

- الباب الأول: الأخ في الدين.
- الباب الثاني: الأخ في الأمثال.
- الباب الثالث: الأخ في الحكمة.
- الباب الرابع: في رثاء الأخوّة.

وبعد، أرجو، أخي القارئ، أن يُعجبك ما اخترتُه لك من أدب الإخوانيات، والله الموفّق والمعين.

المؤلف

الباب الأوّل:

الأخ في الدّين

الفصل الأوّل: الأخ في الدين الإسلامي

﴿إنَّما المُؤمنونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(الحجرات: ١٠)

* * *

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا﴾.

(آل عمران: ١٠٣)

* * *

- انصُرْ أَخاكَ ظالِمًا كانَ أو مَظْلُومًا.

(حديث شريف)

* * *

- لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

(حديث شريف)

* * *

- لا تحاسَدُوا، ولا تناجَشُوا[١]، ولا تَباغَضُوا، ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضُكُمْ على بَيْع بعضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانا.

(حديث شريف)

* * *

(١) ولا تناجَشُوا لا تزايدوا

الفصل الثاني: الأخ في الدين المسيحيّ

- مَنْ يَصْنعُ مشيئَةَ أبي الذي في السماوات هو أَخي وأختي وأمّي.

(متى ١٢: ٥٠)

* * *

- بما أَنكُمْ فَعَلْتموهُ بِأَحَدِ إِخْوتي الأصاغِر فَبي فَعَلْتُم.

(متى ٢٥: ٤٠)

* * *

- إنْ أَخْطَأَ إليكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ، وإنْ تابَ فاغْفِرْ لَهُ، وإنْ أَخطَأَ إليكَ سَبْعَ مرّاتٍ في اليومِ، ورَجَعَ إليك سَبْعَ مَرّاتٍ في اليومِ قائِلاً: أنا تائبٌ، فاغْفِرْ لَهُ.

(لوقا ١٧: ٣ و٤)

* * *

- إنْ قال أَحَدٌ إنّي أُحِبُّ اللهَ وأَبْغَضَ أَخاه، فهو كاذِب.

(١ يو ٤: ٢٠)

* * *

- مَنْ يُحِبَّ اللهَ يُحِبَّ أَخاهُ أَيْضًا.

(رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٢١)

* * *

- أَلَيْسَ أبٌ واحِدٌ لِكِلَيْنا؛ أَلَيْسَ واحِدٌ خَلَقَنا؟

(ملاخي ٢ : ١٠)

* * *

- ما أَحْسَنَ وما أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ الإِخْوَةُ معًا!

(مزامير ١٣٣ : ١)

* * *

- إذا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُه عِنْدَكَ فاعْضُدْهُ.

(لاويين ٢٥ : ٣٥)

* * *

الباب الثاني:

الأخ في الأمثال

الفصل الأوّل: من الأمثال العربيَّة

- رُبَّ أخٍ لكَ لَمْ تلِدْهُ أُمُّكَ.

* * *

- أَخٌ أرادَ البِرَّ صَرْحًا فاجْتَهَدَ.

* * *

- أَخُو الظَّلْماءِ أَعْشَى باللَّيْلِ(١).

* * *

- أَخُو الكِظاظِ مَنْ لا يَسْأَمُهُ(٢).

* * *

- أَخُوك أمِ الذِّئْبُ؟

* * *

- أَخُوك أَمِ اللَّيْلُ؟

* * *

(١) يُضرب لمن يُخطىء حاجته، ولا يبصر المخرج ممّا وقع فيه.
(٢) الكِظاظ: الشدّة والتعب وطول الملازمة، والممارسة الشديدة في الحرب. والمعنى أخو الشرّ لا يملّه.

- أَخُوكَ البَكْرِيُّ ولا تَأْمَنْهُ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ آساكَ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ صَدَقَكَ.

* * *

- أَخُوكَ مَنْ صَدَقَكَ النصيحة.

* * *

- أَخاكَ أَخاكَ إِنَّ مَنْ لا أَخا لَهُ   كساعٍ إلى الهَيْجا بِغَيْرِ سِلاحِ

(مسكين الدارميّ)

* * *

- المَرْءُ مِرْآةُ أخيهِ.

* * *

الفصل الثاني: من الأمثال اللبنانيّة

- الأخ جناح.

* * *

- الأب جلاّب، والأخ سلاّب.

* * *

- إخْوَة شَقّ المِنْشار.

* * *

- الخَيّ خَيّ مْراتُو، والأخت بتِخلِف بِحياتُو.

* * *

- خَيّي مِنْ إمّي مِتْل الهَوا بِكِمّي.

* * *

- الدمّ ما بِيصير ميْ.

* * *

- الّي بيِقْلَع تْيابُو بْيِبْرُد.

- الكلب ما بِعَضّ خَيُّو.

* * *

مَنْ تَرَكْ عَشيرتُو ذَلّ.

* * *

ما بِحِنّ عَ العُود غير قِشْرُو.

* * *

الفصل الثالث: من الأمثال العالميّة

- الأخُ صَديقٌ تَمْنَحُه الطبيعةُ.

(مثل يونانيّ)

* * *

- عندما يَعْمَلُ الإخْوَةُ معًا تَتَحوَّلُ الجبالُ إلى ذَهَبٍ.

(مثل صينيّ)

* * *

- لا تَضَعْ إصْبَعًا بينَ أَخَوين.

(مثل إسبانيّ)

* * *

- لا صديقَ كالأخِ، ولا عَدوَّ كالأخِ.

(مثل هنديّ)

* * *

- أن يكونَ كلُّ البشرِ إخوة هو حُلمُ أولئكَ الذين لا إخوة لهم.

(مثل فرنسيّ)

- ثلاثة إخوة ثلاث قلاع.

(مثل برتغاليّ)

* * *

- منَ الصعبِ أن يتحَمَّل المرءُ بسهولة مجد الأخ أو موته.

(مثل تركيّ)

* * *

- عندما يساندُ الأخُ أخاه، فليس هناك غير الله لكي يَمْتَحِنَهما.

(مثل كوريّ)

* * *

- لكلّ واحد أَبٌ وأُمٌّ، ولكن ليس ثمَّةَ أصعبُ من العثُورِ على الأخِ.

(مثل صينيّ)

* * *

- عندما تُفلِس يُمكِنُكَ اللجوء إلى صديقك، ولكن ليس إلى أختك.

(مثل هنديّ)

* * *

- البرميل الأوَّل يبيع البرميل الثاني، والأخت تزوّج الأخرى.

(مثل صربيّ)

* * *

- الأخُ هو الأخُ، ولكنّ الجدي يساوي ثمنه دائمًا.

(مثل فارسيّ)

* * *

- الإخوة هم إخوة، ولكن جيوبهم ليست أخوات.

(مثل ألمانيّ)

* * *

الباب الثالث:

الأخ في الحكمة

الفصل الأوّل: في الحكمة العربيَّة

- امْحَضْ أَخاكَ النَّصيحةَ حَسَنَةً كانَتْ أمْ قبيحة.

(الإمام عليّ)

* * *

- فِتْنَةُ الإخوانِ عُرسُ الشيطان.

(جَعفر الصادق)

* * *

- أَعْجَزُ الناسِ مَنْ عَجِزَ عنِ اكْتسابِ الإخْوانِ، وأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ مِنهم.

(الإمام عليّ)

* * *

- لقاءُ الإخوان نزهةُ القلوب.

(حكمة عربيّة)

* * *

- الرجل بلا إخوة كالشمال بلا يمين.

(حكمة عربيّة)

- التارك للإخوان متروك.

* * *

- مُجالَسَةُ الإخوان مَسْلاة للأَحْزان.

* * *

- الأَخُ الصالحُ خَيْرٌ من نَفْسِكَ، لأَنَّ النَّفْسَ أَمّارَةٌ بالسُّوءِ، والأخُ الصالحُ لا يأمُرُ إلاّ بالخيرِ.

(حكيم عربيّ)

* * *

- دوام السرور برؤية الإخوان.

* * *

- أَعِنْ أَخاكَ ولو بالصَّوت.

* * *

- الحاجَةُ إلى الأخ المُعين كالحاجةِ إلى الماءِ المَعين.

* * *

- عاتِبْ أَخاكَ بالإحْسانِ إليه، وارْدُدْ شَرَّهُ بالإنْعام عليه.

(الإمام عليّ)

* * *

الفصل الثاني: في الحكمة العالميّة

- غضَبُ الإخْوة غضَبُ الشياطين.

غبريال موريه (١٥٦٨)

* * *

- الدمُ لا يَحولُ دونَ الاختلاف في المقام.

بيير كورناي (١٦٥١)

* * *

- أنْ يكون كلّ البَشَر إخوة هو حلم أولئك الذين لا إخوة لهم.

شارل شانشول (١٨٨٠)

* * *

- لا صديقة تعادل أختًا.

كريستينا روسيتي (١٨٦٢)

* * *

- مُعاتَبَةُ الإخْوانِ خَيْرٌ مِنْ فَقْدِهِمْ.

؟؟؟

- ما مِنْ سُرورٍ يَعْدِلُ لِقاءَ الإخوانِ، وما مِنْ غَمٍّ يَعْدِلُ فِراقَهَمْ.

؟؟؟

* * *

- صداقةُ الأخوَينِ أَشَدُّ متانةً منَ الحاجزِ.

انتيستنيس (القرن الرابع ق.م.)

* * *

الفصل الثالث: في الشعر العربيّ

تكَثَّرْ من الإخْوانِ ما اسْطَعْتَ إنَّهُمْ   عِمادٌ إذا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وظَهيرُ
وما بِكَثيرٍ أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِبٍ   وإنَّ عَـدُوًّا وَاحِـدًا لَـكَـثـيـرُ

(مهدي بن سابق)

* * *

أَخاكَ أَخاكَ أنت، فَاعْلَمْ، جَناحُهُ   وهَلْ يَنْهَضُ البازِي بدونِ جَناحِ؟

* * *

وَلَيْسَ أخي مَن وَدَّني وَهْوَ حاضِرٌ   ولكنْ أخي مَن وَدَّني وَهْوَ غائبُ

* * *

ما ضاعَ مَن كانَ له صاحِبٌ   يَقْدِرُ أنْ يُصْلِحَ من شانِهِ
فَـإنَّـمـا الـدُّنْـيـا بِسُكّانِـهـا   وإنّـمـا الـمَـرْءُ بـإخْـوانِـهِ

* * *

أَخوكَ مَن دامَ على الإِخاءِ   ما أكْثَرَ الإخوانَ في الرَّخاءِ!

(السابوري)

* * *

أَخوكَ الذي يَحْميكَ في الغَيْبِ جاهدًا   وَيَسْتُرُ ما تأتي من السُّوءِ والقُبْحِ

وينْشُرُ ما يُرْضيكَ في النّاسِ مُعْلِنًا ... وَيُغْضي ولا يَألو من البِرِّ والنُّصْحِ

(التجيبي)

* * *

يَمْضي أَخوكَ فَلا تَلْقَى لهُ خَلَفًا ... والمالُ بعدَ ذَهابِ المالِ مُكْتَسَبُ

(الفرزدق)

* * *

وليسَ أَخي مَنْ وَدَّني بلسانِهِ ... ولكنْ أخي مَن وَدَّني في النَّوائِبِ

وَمَن مالُهُ مالي إذا كنتُ مُعْدَمًا ... ومالي لهُ إنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغارِبِ

فلا تَحْمَدَنْ عندَ الرَّخاءِ مُؤاخِيًا ... فقد تُنْكَرُ الإخوانُ عندَ المصائبِ

* * *

وُدُّ صَحيحٌ من أخٍ لبيبِ ... أَفْضَلُ من قرابَةِ القريبِ

(السابوري)

* * *

عليكَ بإخوانِ الثّقاتِ فَإِنَّهُمْ ... قليلٌ، فَصِلْهُمْ دونَ مَن كُنْتَ تَصْحَبُ

(البغدادي)

* * *

كَمْ مِنْ أخٍ لكَ لم يَلِدْهُ أبوكا ... وأخٍ أبوهُ أبوكَ قد يَجْفوكا

صافِ الكِرامَ إذا أَرَدْتَ إخاءَهُمْ ... وَاعْلَمْ بأنَّ أخا الحفاظِ أخوكا

(ابن يعيش)

* * *

لا تَيْأَسَنْ من أخٍ وَلَّى بجانِبِهِ وإن بَدا لكَ مِنْهُ سُوءُ أخلاقِ
إنَّ السَّماءَ تُرَجَّى وَهْيَ نازِحَةٌ إذا ألَحَّتْ بإرْعادٍ وإبْراقِ

(ابن الساعاتي)

* * *

إذا أنْتَ لم تُنْصِفْ أَخاكَ وَجَدْتَهُ على طَرَفِ الهِجْرانِ إنْ كانَ يَعْقِلُ

(معن بن أوس)

* * *

أخوكَ الذي إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ، وإنْ تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ

* * *

ومَن يُفَتِّشْ عن الإخوانِ يَلْقَهُمُ فَجُلُّ إخوانِ هذا العَصْرِ خُوّانُ

(أبو الفتح البستي)

* * *

أخوكَ الذي إنْ أحْوَجَتْكَ مُلِمَّةٌ من الدَّهْرِ لم يَبْرَحْ لها الدَّهْرَ واجِما
وليسَ أخوكَ بالذي إنْ تَشَعَّبَتْ عَلَيْكَ أُمورٌ ظَلَّ يَلْحاكَ لائما

(المرقّش الأصغر)

* * *

فإمّا أنْ تَكونَ أخي بِحَقٍّ فأَعْرِفَ منكَ غَثّي من سَميني
وإلّا فاطَّرِحْني واتَّخِذْني عَدُوًّا أتَّقيكَ وَتَتَّقيني

(المثقب العبدي)

* * *

احْفَظْ أخاكَ وسارِعْ في مَسَرَّتِهِ حتّى يَرَى مِنكَ في أَعْدائِهِ خَبَرَ
أخوكَ سَيْفُكَ إنْ نابَتْكَ نائِبَةٌ وشَمَّرَتْ نَكْبَةٌ في عِطْفِها زَوَرُ
(عقيل بن هاشم)

* * *

إنَّ أخاكَ الحَقَّ مَنْ يَسْعَى مَعَكْ وَمَـن يَـضُـرُّ نَـفْـسَـهُ لِـيَـنْـفَـعَـكْ

* * *

فَأَنْتَ أخي ما لَمْ تكنْ ليَ حاجَةٌ فإنْ عَرَضَتْ أيقَنْتُ أنْ لا أخا لِيا
كِلانا غَنيٌّ عن أخيهِ حَياتَهُ وَنَحنُ إذا مُتْنا أشَدُّ تَغانِيا
(عبد الله الجعفري)

* * *

إخْـوانُ هـذا الـزَّمـانِ كُـلُّـهُـمُ إخوانُ غَدْرٍ عَلَيْهِ قد جُبِلوا
طَـوَوا ثِـيَـابَ الـوَفـاء بَـيْـنَـهُـمُ وَصـارَ ثـوبُ الـرِّيـاءِ يُـبْـتَـذَلُ

* * *

أخـاكَ أخـاكَ فَـهْـوَ أَجَلُّ ذُخْرٍ إذا نـابَـتْـكَ نـائِـبَـةُ الـزَّمـانِ
وإنْ بـانَـتْ إسـاءَتُـهُ فَـهَـبْـهـا لِما فيهِ من الشِّيَمِ الحِسانِ
تُـريـدُ مُـهَـذَّبًا لا عَـيْـبَ فـيـهِ وهَلْ عُودٌ يَفوحُ بلا دُخانِ؟!
(الطغرائي)

* * *

أَتَطْلُبُ من أخٍ خُلُقًا جَليلاً وخَلْقُ النّاسِ من ماءٍ مَهينِ
فَـسـامِـحْ إنْ تَـكَـدَّرَ وُدُّ خِـلٍّ فـإنّ الـمـرءَ مـن مـاءٍ وَطِـيـنِ
(صفي الدين الحلّي)

* * *

اعْـذِرْ أَخَـاكَ عـلـى ذُنُـوبِـهْ   واسْـتُـرْ وغَـطِّ عـلـى عُـيـوبِـهْ
واصْـبِـرْ عـلـى بَـهْـتِ الـسَّـفيـ   ـهِ ولـلـزّمـانِ عـلـى خُـطـوبِـهْ
واعْـلَـمْ بِـأنَّ الـحِـلْـمَ عِـنْـدَ   الـغَـيْـظِ أَحْـسَـنُ مِـنْ رُكُـوبِـهْ

(الشريف الرضيّ)

* * *

أُحِبُّ منَ الإخْوانِ كُلَّ مُؤاتي   وكُلَّ غَضيض الطرفِ عَنْ عَثَراتي
يوافِقُني في كُلِّ أَمرٍ أُريدُهُ   ويحْفَظني حَيًّا وبعدَ وفاتي
فَمَنْ لي بهذا؟ ليتَ أَنِّي أَصَبْتُهُ   فقاسَمْتُهُ ما لي منَ الحسناتِ
تصَفَّحْتُ إخْواني فكانَ أَقَلَّهُمْ   على كَثْرَةِ الإخوانِ أَهلُ ثقاتي

(الإمام الشافعيّ)

* * *

عليَّ لإخواني رقيبٌ منَ الصَّفا   تبيدُ الليالي وهو ليس يبيدُ
يذكِّرنيهم في مغيبي ومَشْهدي   فسِيّانِ منْهُمْ غائِبٌ وشهيدُ
وإنِّي لأسْتَحْيي أَخي أنْ أَبَرَّهُ   قريبًا وأنْ أجفوه وهو بعيدُ

؟؟؟

* * *

الباب الرابع:

في رثاء الأخوة

قال الرِّياشي: صَلَّى مُتَمِّم بن نُوَيْرة الصُّبح مع أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نِعْم القَتِيلُ - إذا الرِّياحُ تَنَاوَحَتْ   بين البُيوت - قَتَلْتَ يا ابنَ الأزْوَرِ[1]
أَدَعَوْتَه باللهِ ثمَّ قَتَلْتَه   لَوْ هُو دَعاكَ بِذِمَّةٍ لم يَغْدِرِ
لا يُضْمِر الفَحْشاءَ تحت رِدَائه   حُلْوٌ شمائلُه عَفِيفُ المِئزَرِ

قال: ثمّ بكى حتى سالت عَيْنُه العَوْراء. قال أبو بَكر: مَا دعوتُه ولا قتلتُه. وقال مُتَمِّم:

ومُسْتَضحِكٍ منّي ادّعَى كَمُصِيبتي   وليس أخو الشَّجْو الحَزين بضاحِكِ
يَقُول أَتبكي مِن قُبُورٍ رَأَيْتَها   لِقَبْرٍ بأطْرافِ المَلاَ فالدَّكادِكِ[2]
فقلتُ له إنّ الأسَى يَبْعَثُ الأسَى   فَدَعْني فَهذِي كلُّها قَبْرُ مالكِ

* * *

وقال مُتَمّم يَرْثي أخاه مالكًا، وهي التي تُسمَّى أمَّ المَراثي:

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتَأبين هالكٍ   ولا جَزَعٍ ممّا ألَمّ فَأَوْجَعَا[3]

(١) ابن الأزور: ضرار بن الأزور، وهو الذي قتل مالك بن نويرة.
(٢) الدكادك جمع دكدك. وهو من الرمل ما تكبّس واستوى.
(٣) ما دهري: أي ما همي وغايتي. ولا جزع، عطف على قوله «بتأبين». يقول: ليس همي بمرثية ميت وإظهار الجزع عليه ولكني أمدح أخي وأظهر فضله. أو لعله يريد أن أخاه قد عاجله الموت وأن هذا الوقت لم يكن لرثائه.

لقد غَيَّب الْمِنْهَالُ تحت رِدَائه … فَتَى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّات أَرْوَعا[١]

ولا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرْسِه … إذا القَشْعُ من بَرْد الشِّتاء تَقَعْقَعَا[٢]

تَراه كَنَصْلِ السَّيْفِ يهتزُّ لِلنَّدَى … إذا لم تَجِد عند امرئ السُّوْء مَطْمَعَا

فَعَيْنَيَّ هَلاّ تَبْكِيان لِمالِكٍ … إذا هَزَّت الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرفَّعَا[٣]

وأَرْمَلَةٍ تَمْشي بأَشْعَثَ مُحْثَلٍ … كَفَرْخِ الْحُبارى رِيشُه قد تَمَزَّعَا[٤]

وما كان وَقّافًا إذا الخَيْلُ أَحْجَمت … ولا طالبًا من خَشْية الْمَوت مَفزَعَا[٥]

ولا بِكَهَامٍ سَيْفُه عَن عدوِّه … إذا هو لاقَى حاسِرًا أو مُقَنَّعَا[٦]

أَبَى الصَّبرَ آياتٌ أَراها وأَنَّني … أَرى كُلَّ حَبْلٍ بعد حَبْلِك أَقْطَعَا[٧]

وأَنّي متى ما أَدْعُ بِاَسمك لم تُجِب … وكُنت حَرِيًّا أن تُجِيب وتَسْمَعَا

تَحِيَّتَه مِنّي وإن كان نائيًا … وأَمْسى تُرابًا فوقه الأرضُ بَلْقَعَا

فإنْ تَكُنِ الأَيّام فَرَّقْن بَيْنَنا … فَقد بان مَحْمودًا أخِي حِينَ وَدَّعَا

فَعِشْنا بِخَيْرٍ في الحَياة وقَبْلَنا … أصاب المَنايا رَهْطَ كِسْرَى وتُبَّعَا

---

(١) المنهال: رجل من بني يربوع ألقى ثوبه على مالك أخي متمم يستره به. والمبطان: الضخم البطن. يريد أنه لا يتعجل العشاء انتظارًا في العشيات للضيفان، وهي وقت مجيئهم. والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.

(٢) البرم. الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. والقشع: البيت من أدم أو جلد. والتقعقع: صوت الجلد إذا يبس.

(٣) الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع.

(٤) يريد «بالأشعث»: ولدها. والمحثل: السيّء الغذاء. وتمزع: تفرق

(٥) أي ليس الجبان الذي يدفعه قومه وينحونه لأنه ليس من رجال الحرب

(٦) الكهام: الكليل. والمقنع. الذي عليه بيضة ومغفر. والحاسر: ضده

(٧) يقول: أبى الصبر معالم وآثارًا أراها من آثارك فأذكرك إذا رأيتها فلا أقدر على الصبر. وبعد حبلك أقطعا: أي قد ذهب الوفاء.

وكُنَّا كَنَدْمَاني جَذِيمة حِقْبَةً　　من الدَّهر حتى قِيل لن يَتَصَدَّعَا(١)
فلمّا تَفرَّقْنا كأنّي ومالِكًا　　لِطُولِ ٱجتماع لم نَبِتْ ليلةً معًا
فما شارِفٌ حَنَّتْ حَنِينًا ورَجَّعَتْ　　أنينًا فأَبْكى شَجْوُها البَرْكَ أجمعًا(٢)
ولا وَجْدُ أظْآر ثلاثٍ رَوَائم　　رَأَيْنَ مَجَرًّا من حُوارٍ ومَصْرَعَا(٣)
بأَوْجَدَ منّي يومَ قام بمالكٍ　　مُنَادٍ فَصِيحٌ بالْفِراق فأَسْمَعَا
سَقى الله أرضًا حَلَّها قَبْرُ مالك　　ذِهابُ الغَوَادِي المُدْجنات فأَمْرَعَا(٤)

* * *

قيل لعمرو بن بَحْر الجاحظ: إنّ الأصمعيّ كان يُسَمِّي هذا الشعرَ أُمَّ المَراثي؛ فقال: لم يَسمع الأصمعيُّ:

أَيُّ القلوب عليكم ليس يَنْصَدعُ　　وأَيّ نَوْم عليكم ليس يَمْتَنعُ

* * *

وقال الأصمعيّ: لم يَبْتَدئ أحدٌ مَرْثِية بأحسنَ من ٱبتداء أَوْس بن حَجَر:

أيتُها النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعا　　إنّ الذي تَحْذرين قد وَقَعا

---

(١) ندمانا حديمة. هما مالك وعقيل، نادما حديمة الأبرش، وكانا ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي فسألهما حاجتهما فسألاه منادمته، فكانا نديميه ثم قتلهما.

(٢) الشارف المسنّة من الإبل، وخصّها لأنها أرقّ من الفتية لبعدها عن الولد. والبرك الألف من الجمال.

(٣) الأظآر. النوق يعطف على حوار واحد. والروائم: النوق تعطف على ولدها. والحوار: ولد الناقة.

(٤) الذهاب: جمع ذهبة وهي القطعة من السحاب. والغوادي: الغيوم التي تعدو بالمطر. والمدجنات: السحب الكثيفة السود. وأمرع أخصب.

وبعدها قولُ زُمَيل[١]:

أجارَتَنا مَن يجتمع يَتَفَرَّقِ ... ومَن يَكُ رَهْنًا للحوادث يَغْلَقِ

* * *

قال ابن إسحاق صاحبُ المغازي: لما نزل رسولُ الله ﷺ الصَّفْراء - وقال ابْنُ هشام: الأثيل[٢] - أمَر عليَّ بن أبي طالب بضَرْب عُنق النَّضر بن الحارث بن كَلَدَة بن عَلْقمة بن عبد مَناف، صَبْرًا[٣] بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت أُختُه قُتَيْلة[٤] بنت الحارث تَرْثيه:

يا راكبًا إنّ الأُثَيل مَظِنَّةٌ ... من صُبْح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبْلِغْ بها مَيْتًا بأنّ تَحِيَّةً ... ما إن تَزال بها النَّجائِبُ تَخْفِقُ[٥]
منّي إليك وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جادت بواكفها[٦] وأُخْرى تَخْنُقُ
هل يَسْمَعنّي النَّضْرُ إن ناديتُه ... أم كيف يَسْمع مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ
أمحمدٌ يا خير ضِنْءٍ[٧] كريمةٍ ... في قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّك لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ
فالنَّضْرُ أقْرَبُ مَنْ أسَرْتَ قَرابَةً ... وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

---

(١) هو زميل بن أبرد الفزاري.
(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء.
(٣) يقال للرجل يقدم فيضرب عنقه قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت، وكذلك كل مقتول في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرًا.
(٤) وقتيلة: هي بنت النصر لا أخته.
(٥) النجائب الإبل الكريمة وتحقق: تسرع.
(٦) الواكف السائل.
(٧) الصنء النسل.

ظَلَّت سُيوف بني أبيه تَنُوشه[1] لله أرحامٌ هُناك تَشقَّق
صَبْرًا يُقاد إلى المنيَّة مُتْعَبًا رَسْفَ المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ[2]

قال ابن هشام: قال النبيُّ ﷺ لما بلغه هذا الشِّعر: لو بلغني قبلَ قَتْله ما قتلتُه.

* * *

قال الأصمعيُّ: نَظر عمرُ بن الخطّاب إلى الخَنساء وبها نُدوب في وَجْهها، فقال: ما هذه النُّدوب يا خَنْساء؟ قالت: من طُول البُكاء على أخَوَيّ؛ قال لها: أخَواكِ في النار؛ قالت: ذلك أطْول لِحُزني عليهما، إني كنتُ أُشفِق عليهما من النار، وأنا اليوم أبْكي لهما من النار، وأنشدتْ:

وقائلةٍ والنَّعشُ قد فات خَطْوَها لِتُدْرِكه: يا لَهْفَ نفسي عَلَى صَخْرِ
ألا ثَكِلت أُمُّ الذين غَدَوْا به إلى القَبْرِ ماذا يَحْمِلُون إلى القبرِ

* * *

دخلت الخَنْساءُ على عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وعليها صِدَار من شَعَر قد اَستشعرته إلى جِلْدِها، فقالت لها: ما هذا يا خَنساء؟ فوالله لقد تُوفي رسولُ الله ﷺ فما لَبِسْتُه؛ قالت: إنّ له مَعْنى دَعاني إلى لِباسه، وذلك أنّ أبي زَوَّجني سيّد قومه، وكان رجلاً مِتْلافًا فأَسْرف في ماله حتى أنْفده، ثم رَجع في مالِي فأَنْفده أيضًا، ثم اَلتفت إليّ فقال. إلى أين يا خَنْساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخر. قالت: فأَتيناه فَقَسَّم، مالَه شَطْرَين، ثم خَيَّرنا في أحْسن الشَّطْرين، فَرَجَعْنا من عنده، فلم يَزَل زَوْجي حتى أذْهَبَ جَمِيعَه.

(١) تنوشه: تتناوبه.
(٢) رسف المقيد: مشيه. والعاني: الأسير.

ثم ٱلتفت إليّ، فقال لي: إلى أين يا خَنساء؟ قلت: إلى أخي صَخْر. قالت: فَرَحَلْنا إليه، ثم قَسَّم ماله شَطْرين، وخَيَّرنا في أفضل الشَّطْرين. فقالت له زوجتُه: أما تَرْضى أن تُشَاطِرَهم مالك حتى تُخَيِّرهم بين الشَّطرين؟ فقال:

واللهِ لا أمْـنَـحـهـا شِـرَارَهـا … فلو هَلَكْت قَدَّدَتْ خِمَارَها
وٱتَّـخذَتْ مـن شَـعَرٍ صِدَارَهـا … وهي حَصَانٌ قد كَفَتْني عارَها

* * *

وقالت الْخنساء تَرْثِي أخاها صَخْر بن الشَّرِيد:

قَذًى بعَيْنِك أمْ بالْعَيْن عُوَّارُ … أم أقْفرَتْ إذ خَلَتْ من أهْلها الدَّارُ
كأنَّ عَيْني لِذكْراه إذا خَطَرتْ … فَيْضٌ يَسِيلُ على الخَدَّين مِدْرارُ
فالعَيْنُ تَبكِي على صَخْرٍ وحُقَّ لها … ودُونه من جَديد الأَرْض أسْتارُ
بُكَاءَ والِهةٍ ضَلَّت أَلِيفَتها … لها حَنِينانِ إصْغَارٌ وإكبارُ[1]
تَرْعَى إذا نَسِيتْ حتى إذا ذَكَرَت … فإنما هي إقبالٌ وإدْبارُ
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمّ الهُداةُ به … كأنَّه عَلَمٌ في رَأْسه نارُ
حامَي الحَقِيقةِ مَحْمُودُ الخَلِيقةِ مَهْ … دِيُّ الطَّرِيقةِ نَفَّاعٌ وضَرَّارُ

* * *

وقالت أيضًا:

أَعَيْنَيّ جُودَا ولا تَجْمُدَا … أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيان الجَرِيءَ الجَوَادَ … أَلَا تَبْكِيانِ الفَتَى السَّيِّدَا
طَويلَ النِّجاد رَفِيعَ العِمَا … د سَادَ عَشِيرَتَه أَمْرَدَا

(١) إصغارها. حنينها إذا حفضته. وإكبارها حنينها إذا رفعته

يُحَمِّله القومُ ما غالَهم ... وإنْ كان أصغرَهم مَوْلِدَا
جَمُوعُ الضُّيوفِ إلى بابه ... يَرى أفضلَ الكَسْب أن يُحمدَا

* * *

وقالت أخت الوليد بن طَرِيف ترثي أخاها الوليد بن طَريف:

أيَا شجرَ الخابُور ما لكَ مُورِقًا ... كأنَّك لم تَجْزَع على ابن طَرِيفِ
فَتًى لا يُرِيدُ العِزّ إلّا من التُّقى ... ولا المالَ إلا مِن قَنًا وسُيُوفِ
ولا الذُّخْر إلا كُلّ جرداء صِلْدِم(١) ... وكلَّ رقيق الشَّفْرتين حليفِ
فَقدْناه فِقدانَ الرَّبيع فليتَنا ... فَدَيْنَاه من ساداتنا بألُوفِ
خَفِيفٌ على ظَهْر الجَواد إذا غَدا ... وليس على أعدائه بخَفيفِ
عليك سلامُ الله وَقْفًا فإنّني ... أرَى الموتَ وَقّاعًا بكلِّ شَريفِ

* * *

وقال أبو العتاهية يَرْثي أخاه:

أخٌ طالما سرّني ذِكْرُه ... فقد صِرْتُ أَشْجَى إلى ذِكْرِهِ
وقد كُنتُ أَغْدُو إلى قَصْرِه ... فقد صِرْتُ أغْدُو إلى قَبْرِهِ
وكنت أراني غَنِيًّا به ... عن الناس لو مُدَّ في عُمرِهِ
وكنت إذا جِئْتُه زائرًا ... فأمْرِي يَجُوز على أمْرِهِ

* * *

وقال كعب يرثي أخاه أبا المِغْوار(٢):

تقول سُلَيْمى ما لِجِسْمك شاحبًا ... كأنَّك يَحْمِيكَ الطَّعامَ طَبِيبُ
فقُلتُ شُجُونٌ من خُطُوبٍ تَتابعت ... علَيّ كِبَارٌ والزَّمانُ يَرِيبُ

(١) الجرداء: القصيرة الشعر. والصلدم: الشديدة الحافر.
(٢) اسم أبي المغوار على الأصح هرم، وقيل شبيب.

لَعَمْري لئنْ كانت أصابتْ مَنيَّةٌ ... أخِي فالمَنايَا للرِّجال شَعوبُ[1]

فـإنِّـي لَـبَـاكِـيـه وإنِّـي لـصادِقٌ ... عليه وبعضُ القائلين كَذُوبُ

أخِي ما أخِي لا فاحشٌ عند بَيْتِه ... ولا وَرِعٌ عند اللِّقاء هَيُوبُ

أخٌ كان يَكْفِيني وكان يُعِينني ... على نائباتِ الدَّهر حين تَنُوبُ

هو العَسَلُ الماذِيُّ لِينًا وشِيمةً ... وليثٌ إذا لاقى الرجالَ قَطُوبُ[2]

هَوَتْ أُمُّه[3] ما يَبْعَثُ الصُّبحُ غادِيًا ... وماذا يَرُدّ الليلُ حين يَؤُوبُ

كعاليةِ الرُّمحِ الرُّدَيْنِي لم يَكُن ... إذا ابْتدر الخيلَ الرجالُ يَخِيبُ

وَدَاعٍ دَعَا يا مَن يُجيب إلى النَّدا ... فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ

فقلتُ ادعُ أخرى وارفَعِ الصوت ثانيًا ... لعلَّ أبا المغْوَار منك قَرِيبُ

يُجِبْك كما قد كَان يَفْعَل إنّه ... بأمْثالها رَحْبُ الذِّراعِ أرِيبُ

وحَدّثْتُماني أنّما المَوْتُ بالقُرى ... فكيفَ وهاتي هَضْبةٌ وكَثِيبُ

فلو كانت المَوْتى تُباع اشتريتُه ... بما لم تَكُن عنه النُّفوسُ تَطيبُ

بِعَيْنِيَ أو يُمْنى يَدَيّ وخِلْتُني ... أنا الغائمُ الجَذْلَانُ حين يؤوبُ

لقد أفسد الموتُ الحياةَ وقد أتى ... على يَوْمِه عِلْقٌ[4] إليّ حَبيبُ

أتى دُون حُلْو العَيْش حتى أمَرَّه ... قُطُوبٌ على آثارهنَّ نُكُوبُ[5]

فوالله لا أنساه ما ذَرّ شارِقٌ ... وما اهتزّ في فَرْعِ الأراكِ قَضِيبُ[6]

فإنْ تكُن الأيامُ أحْسَنّ مَرّةً ... إليّ لقد عادَتْ لَهُن ذُنُوبُ

---

(١) شعوب. أي مفرقة.

(٢) الماذي: الأبيض، وهو أجود العسل. وقطوب: عابس.

(٣) هوت أمه: دعاء عليه، ومعناه التعجب. ويريد هنا استعظام الحزن عليه.

(٤) العِلْق. النفيس.

(٥) نكوب: مصائب.

(٦) ذرّ شارق: أشرقت شمس. الأراك: نوع من الشجر.

الباب الخامس:

من الإخوانيّات

الفصل الأول: من إخوانيّات عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري (٠٠٠ - ١٣٢هـ/ ٧٥٠م). عالم بالأدب، من أئمة الكتّاب. يُضرب به المثل في البلاغة. له رسائل تقع في نحو ألف ورقة، طُبع بعضها. وهو أوّل من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب.

* * *

من كتاب عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حفظكم الله يا أهلَ صناعة الكتابة، وحاطَكم ووفَّقكم، وأرشدكم، فإنّ الله، عزّ وجلّ جعل النّاسَ بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين، أصنافًا، وإن كانوا في الحقيقة سواءً، وصرَّفهم في صنوف الصناعات، وضُروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم. فجعلكم معشرَ الكتاب في أشرفِ الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورُها، وبنصائحكم يصلح الله للخلقِ سلطانَهم، وتعمر بلدانهم. لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلّا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمْتعكم

الله بما خصَّكم من فضلِ صناعتكم، ولا نَزع عنكم ما أضفَاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خِلالِ الخير المحمودة، وخِصالِ الفضل المذكورة المعدودة منكم. أيها الكتّاب، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه، الذي يثق به في مهمات أموره، أن يكون حليمًا في موضع الحلم، فهيمًا في موضع الفهم، مِقدامًا في موضع الإقدام، محجامًا في موضع الإحجام، مُؤثرًا للعفاف والعدل والإنصاف، كتومًا للأسرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي من النوازل، يضع الأمورَ مواضعَها، والطوارقَ في أماكنها. قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم، فأحكمَه، وإن لم يُحكمْه أخَذَ منه بمقدار ما يكتفي به. يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يَردُ عليه قبل وروده؛ وعاقبةَ ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعدُّ لكلّ أمر عدَّته وعتادَه، ويهيِّئ لكلّ وجه هيئته وعدّته، فتنافسوا يا معشر الكتَّاب في صنوف الآداب، وتفقَّهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتابِ الله، عزّ وجلّ، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم، ثم أجيدوا الخطّ فإنه حِلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها، ومعانيها، وأيام العرب، والعجم وأحاديثها وسِيَرها، فإنّ ذلك مُعين لكم على ما تَسْمو إليه هممكم. ولا تُضِيعوا النظر في الحساب، فإنَّه قوام كتَّاب الخَراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيِّها ودنيِّها[1]، وسفسافِ الأمور ومحاقرها، فإنها مذلّة للرقاب، ومفسدة للكتاب.

* * *

(١) أي: العالي منها والرخيص

الفصل الثاني: من إخوانيّات البحتريّ

هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (٢٠٦ - ٢٨٤هـ = ٨٢١ - ٨٩٨م). شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أيّ الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنّما الشاعر البحتريّ. ولد بمنبج بين حلب والفرات، وتوفي فيها. له ديوان شعر، وكتاب «الحماسة».

* * *

كتب إلى صديق له: وكان أَتاه فلم يصل إِليه، وكان لا يمتنع منه للحال بينهما:

«أَستمتعُ اللهَ ببقائك، وأَسأَلُهُ العَونَ على جَفائك. لولا أَن الكلام يطول ويكْثُر لكان الإِكثار في الشكيّة مُمْكنًا، لٰكِنَّا نقتصر على القليل منه، وقد أَهديتُ إِليك أَبياتَ مُعاتبةٍ أَتَتْ على ما أَردنا من الكلام، فتدبَّرْها وتفهَّمْها، وعُدْ إِلى ما لم نَزَلْ نعرفك به من التفضُّل، ولا تدعُوَنَّك زيادةُ النِّعمة من الله عليك إِلى الاستخفاف بإِخْوَانك. ولولا أَنَّ تَرْكَ العتاب في موضع المعاتبة جفاءٌ وداعيةٌ إِلى القطيعة، لكان أَحبَّ الأَمْرَيْن إِليَّ تَرْكُ العتاب لِثقله على المُذْنِبين. أَرشدك الله لأَفضل الأُمور. ووفَّقك لمحابِّه»! والأَبيات:

يا «فَضْلُ» فِيمَ الصُّدُودُ والغَضَبُ؟ أَمْ فِيمَ حَبْلُ الصَّفاءِ مُنْقَضِبُ؟
أَمْ فِيمَ هِجْرَانُ هائمٍ بِكُمُ تُقْصُونَهُ دائبًا ويَقْتَرِبُ؟!
هذا لِذَنْبٍ، فَلَنْ أَعودَ لهُ ما أَعْقَبَتْ ريحَ شَمْأَلٍ نُكُبُ[1]
أَمْ دَبَّ لي كاشِحٌ فأَضْرَمَ لي عِنْدَكَ نارًا بالإِفْكِ تَلْتَهِبُ؟
يا «فضْلُ» أَشْمَتَّ بي العُدَاةَ، وقد أَعطَيْتَهُمْ فيَّ فوق ما طَلَبُوا
صَدُّكَ عنِّي وجَفْوَةٌ حَدَثَتْ مِن صاحبٍ غالَ وُدَّهُ العَطَبُ
كان صَدِيقًا، فصار مَعْرِفَةً بعْدُ؛ كذاكَ القُلوبُ تَنْقَلِبُ
إِنِّي لَبَاكٍ عليهِ ما طَرَقَتْ عَيْنٌ، وما فاضَ دَمْعُها السَّرِبُ
بُكَاءَ مَحْزُونَةٍ على وَلَدٍ لم يُغْنِ عنها الإشفاقُ والحَدَبُ[2]
أَنْدُبُ حَيًّا، ماتتْ مَودَّتُهُ طَوْرًا، وطَوْرًا عليهِ أَنْتَحِبُ
باخَ سَنَا نارِ وُدِّهِ فَخَبا، وكان حِينًا لنارِهِ لَهَبُ[3]
قد كنتُ آتِيهِ للسَّلَامِ فلا تَسْتُرُني عن لقائهِ الحُجُبُ
قد كان يُبْدِي وُدًّا وتَكْرِمةً إِذْ مَشْرَعُ الودِّ بَيْنَنا عُقَبُ[4]
إِذْ أَنا في عُنْفُوَانِ مَنْزِلَةٍ تُكْرِمُني مَرَّةً لها «العَرَبُ»[5]
تُظِلُّني للمُلُوك أَسْمِيَةٌ أَمطارُهنَّ: اللُّجَيْنُ والذَّهَبُ[6]
في خَفْضِ عَيشٍ وظِلِّ مَمْلَكَةٍ قد كان يَصْفُو لنا بها الحَلَبُ[7]

---

(١) النكُب: جمع نكباء، وهي الريح التي تقع بين ريحين كالصَّبا والشمال.
(٢) الحدَب: العطف
(٣) باخ: خمد.
(٤) المشرَع. مورد الشرب. عُقَب مناوبة، جمع عُقْبة وهي النّوبة، والبدل.
(٥) العنفوان· أول الشيء.
(٦) أسْمِية جمع سماء. اللجين. الفضة
(٧) الحلَب· يقصد الشراب.

حتى إذا ما الزمانُ أَعْوَصَ بي   والدهرُ فينا لصَرْفِهِ نُوَبُ[1]
أُغْلِقَ دُونِي بابُ الصفاءِ كأنْ   لم يَكُ بَيْنِي وبَيْنَهُ سَبَبُ
يا صاحبًا لم أَخَفْ تغَيُّرَهُ   ما هكذا فِعْلُ مَنْ لهُ أَدَبُ!
ما لي - وكُنْتَ الصَّدِيقَ آمُلُهُ   وأَرْتجي نَفْعَهُ وأَرْتَقِبُ -
آتِيك سَعْيًا مُعَفَّرًا قَدَمي   يَخفِزُني الشوقُ ثمَّ تَحْتَجِبُ
عنِّي، كأنِّي إذا أَتيْتُكُمُ   مُسَلِّمًا شارفٌ بها جَرَبُ!؟[2]
ثَمَّةَ حُجَّابُكَ الجُفَاةُ إذا اسْتَأْ   ذَنْتُ هَرُّوا عليَّ أو قَطَبُوا[3]
ليس جَزَاءُ القؤولِ فيك بما   تَقْصُرُ عنه الصِّفَاتُ والخُطَبُ
هذا لَعَمْري! والحُرُّ لا يَرْتَضِي الْـ   هُونَ، وإنْ قَلَّ عندَهُ النَّشَبُ[4]
يا «فَضْلُ» لا أَحْمِلُ الجفاءَ وَلي   في الأَرضِ مَنْدُوحةٌ ومُضْطَرِبُ![5]
هَيْهَاتَ! هَيْهَاتَ! لا أَهُونُ وَلِي   عَمَّنْ جفاني مَنادِحٌ رُحُبُ![6]
تَمْنَعُني نَبْعَةٌ مُغَرَّسَةٌ   لا قادِحٌ شَانَها ولا قَلَبُ[7]
عن حَمْلِ ما في احتمالِه ضَعَةٌ   حتى يُوَارِي عِظَامِيَ التُّرُبُ

---

(١) أعوَص بي: أنزل عليَّ من النوائب ما يعسر الخلاص منه.
(٢) الشارف: الناقة المسنّة الهرمة.
(٣) هرَّ عليه: صوَّت.
(٤) الهون: الخزي. النشب: العقار والمال الأصيل.
(٥) المندوحة: السعة والفسحة.
(٦) المنادح. الأراضي الواسعة البعيدة.
(٧) النبعة واحدة شجر النبع وتستعمل للقوس، حيث يتخذ من هذا الشجر.
القادح: الأُكال يقع في الشحر وهو التأكل؛ والصدع في العود.
القَلَب (بالتحريك): مأخوذ من القُلاب (بضم القاف) وهو داء يأخذ الإبل في رؤوسهم فيقلبها إلى فوق.

يا «فَضْلُ» لي مِقْوَلٌ أَقولُ بِهِ عَضْبٌ - إذا ما هَزَزْتُهُ - ذَرِبُ[1]
تَحْجُزُني عنك حُرْمَةٌ قَدُمَتْ وخُلَّةٌ ما يَشِينُها كَذِبُ[2]
كَمْ من عُدُوٍّ أرغَمْتُ مَعْطِسَهُ فيك، وكم فيك هَزَّني الغَضَبُ![3]
على رجالٍ إذا هُمُ قَدَحُوا فيك فَبَيْنِي وبَيْنَهم نَحَبُ[4]
إنْ حُصِّلَ الناسُ في فعالِهِم كنتَ ٱلذي أَصْطَفِي وأَنْتَخِبُ[5]
أَجْعَلُكَ الفَذَّ من قِدَاحِهِمُ إذا أُجِيلَتْ، وإنْ هُمُ غَضِبُوا[6]
ثُمَّ أراني لَدَيْكَ مُطَّرَحًا أُجْفَى على حُرْمَتي وأُجتَنَبُ![7]

* * *

وكتب إلى المُبَرِّد يدعوه:

يَوْمُ سَبْتٍ، وعِندنا ما كَفَى الحُرَّ طعامٌ، وٱلوَرْدُ منّا قريبُ
ولنا مجْلِسٌ على النّهر فيّا حٌ فسِيحٌ تَرْتَاحُ فيهِ القُلُوبُ
ودَوَامُ ٱلمُدَام يُدْنِيك ممَّن كُنْتَ تَهْوَى وإنْ جَفَاكَ الحبيبُ
فأْتِنَا يا «محمّد بن يَزِيدٍ» في ٱسْتِتَارٍ كي لا يراكَ الرقيبُ
نَطْرُدِ الهَمَّ بٱصْطِباحٍ ثلاثٍ مُتْرَعاتٍ تُنْقَى بِهِنَّ الكُروبُ
إنّ في الرّاحِ راحةً من جَوَى الحُبِّ؛ وقَلْبي إلى الأديب طَرُوبُ
لا يَرُعْكَ المَشِيبُ منّي فإنّي ما ثَنَاني عن التَّصابي المَشِيبُ!

* * *

(١) المقوَل: اللسان. العضب: القاطع؛ شبهه بالسيف. الذرِب: الحادّ.
(٢) الخُلة: الصداقة لا خلل فيها.
(٣) المعطس: الأنف.
(٤) النحب: الخطر العظيم والأجَل والشدة والمراهنة.
(٥) التحصيل: التمييز
(٦) الفذّ: أول سهام الميسر.
(٧) القِدْح السهم من سهام الميسر وكان قطعة من الخشب يمير كلٌّ منها عن غيره.

وكتب إلى صديق له بحَلَب:

«أَبَا الطَّيبِ»! لا سَمِعْتُ بحادِثٍ   عليك، ولا زِلْتَ ٱلْمُجيرَ على الدَّهرِ!
لِشَكْوَايَ إنِّي لِلَّذي قد أَظَلَّني   من ٱلبَيْنِ أَخْشَى أَنْ أموتَ ولا أَدْري
فوٱللهِ ما أَختارُ مِنْ بَعْدِك ٱلغِنَى   وقُرْبُك أَشْهَى منه عِنْدي مع ٱلفَقْرِ
إذا كُنتُ من خَوْفِ ٱلفِرَاقِ مُدَلَّهًا   ودَارُك مِنِّي يا ابنَ مُوسَى على فِتْرِ
فكَيْفَ تَراني إنْ ترحَّلْتَ صانعًا   إلىٰ بَلَدٍ، أَقْوَتْ مَعَالِمُهُ، قَفْرِ(١)
أُقِيمُ وحيدًا فيهِ أَنْدُبُ رَبْعَهُ   وآسَى على أَيَّامِنا ٱلجدِّ وٱلغُرِّ
أأَصْبِرُ؟ لا وٱللهِ ما لي تَجَلُّدٌ   فأَسْلُو، ولا عن حُسْنِ وَجْهِكَ من صَبْرِ
فسِيَّانِ عندي رِحْلَتي عنكَ طائعًا   وأَنتَ مقيمٌ، وٱنتقالي إِلى قَبْرِي

* * *

قال أَبو الغَوْث يحيى بن ٱلبُحتريّ: دَخَل أَبي إِلىٰ مجلس فيهِ أَبو هِفَّان ٱلمِهْزَمِي، وهو يُنْشِد:

تَلَبَّسْتُ لِلحَرْب أَثْوَابَها   وقُلتُ: أَنَا الرَّجُلُ ٱلبُحْتُرِي!

فقال أَبو هِفَّان مُجِيبًا لهُ:

فلمَّا رأَىٰ الخَيْل قد أَقْبَلَتْ   وَجَدْنَاهُ فِي سَرْجِهِ قد خَرِي

* * *

وقال يعتذر إِلى صديق له مِن تخلُّفه عن دعوته لأَجل المطر:

مِنْ قَضَاءِ ٱلحُقُوقِ في بَعْضِ ما عا   رَضَ دُونَ ٱلحُقُوقِ أَلَّا تُقَضَّى
حَكَمَتْ هَذِهِ السَّمَاءُ بأَنْ نُحْـ   بَسَ عن واجِب الصَّدِيقِ ويَرْضَى
دِيَمٌ أَقْبَلَتْ تُصَحِّحُ عُذْرًا   لأَخِي جَفْوَةٍ وتُسْقِطُ فَرْضَا

(١) أقوت معالمه: خلت من ساكنيها.

أَبْعدَتْني مِن أَن أَجِيئَكَ سَعْيًا ... وبِكُرْهِي أَلَّا أَجِيئَكَ رَكْضَا

* * *

وقال يُعاتب صديقًا له:

إِذَا جَمَعَ ٱمْرؤٌ حَزْمًا وعَقْلاً ... فَحُقَّ لهُ بِذَلِكَ أَنْ يُطَاعَا

إِذَا ذُو ٱلعَقْلِ أَعْطَى النُّصْحَ مِنْهُ ... عَدِيمَ ٱلعَقْلِ ضَيَّعَهُ فَضَاعَا

وكَيْفَ بِصَاحِبٍ إِنْ أَدْنُ شِبْرًا ... يَزِدْني في مُبَاعَدَةٍ ذِرَاعَا

أَبَتْ نَفْسِي لهُ إِلَّا وِصَالًا ... وتَأْبَى نَفْسُهُ إِلَّا ٱنْقِطَاعَا

كِلاَنَا جاهِدٌ: أَدْنُو وَيَنْأَىٰ؛ كَذَلِكَ ... ما ٱسْتَطَعْتُ وما ٱسْتَطَاعَا!

* * *

وكتب إِليهِ محمَّدُ بن عليٍّ القُمِّي بيتَ شعرٍ وهو:

هَجَرْتَ كأَنَّ ٱلوَصْلَ أَعْقَبَ وَحْشَةً ... وَلَمْ أَرَ وَصْلاً قَبْلَهُ يُعْقِبُ ٱلهَجْرَا!

فأَجابهُ البحتريُّ:

فَتى مَذْحِجٍ غفْرًا؛ فَتَى مَذْحِجٍ غفْرَا ... لِمُعْتَذِرٍ جاءَتْ إِساءَتُهُ تَتْرَى!

ومَنْ يَهَبِ النَّيْلَ ٱلَّذي سَمَحَتْ بهِ ... يَدَاكَ بِلاَ مَنٍّ فَلَنْ يَمْنَعَ ٱلعُذْرَا

فإِنْ قُلْتَ بي كِبْرٌ، فمِثْلُ ٱلذي أَرَى ... عَلى النَّاسِ من نُعْمَاكَ يَمْلَؤُني كِبْرَا

مَواهِبُ لِي منها ٱلغِنَى فَمَتى ٱلْتَقَى ... بِسَاحَتِها حَمْدٌ فَلِي حَمْدُها طُرًّا

تُضَافُ إِلى مَجْدِي، وتَجْرِي إِلىٰ يَدِي ... فأَمْلِكُها مالًا، وأَمْلِكُها فَخْرَا

أَتاني قَرِيضٌ مِنْكَ يَحْدُوهُ نائلٌ ... فأَنْطَقَنِي جُودًا، وأَفْحَمَني شِعْرَا

وأَكْسَبْتَني شُغْلاً عن ٱلوَصْلِ شاغلاً ... تُعَاتِبُني فيهِ، وتَعْتَدُّه هَجْرَا

فإِنْ كُنْتَ مشغُوفًا بِقُرْبِيَ آنِسًا ... بِشَخْصِي فَلِمْ خَوَّلْتَني ذلك ٱلْبَذْرَا

لَئِنْ كانَ إِسعافي بهِ مِنكَ قَبْلَها ... وفاءً لقد كان ٱنْفرادي بهِ غَدْرَا

وما هُوَ إلَّا دُرَّةٌ لم أَجِدْ لها   سِوَى جُودِك ٱلأَمْسِيِّ إِذْ بَرَزَتْ بَحْرَا
حَمَلْتَ عَلَيْهِ في سَبيلِ فُتُوَّةٍ   هِيَ الثَّغْرُ خَلْفَ المَجْدِ بل تَفْضُلُ الثَّغْرَا
فإِنْ أَنَا لم أَشْكُرْك نُعْمَاكَ جاهِدًا   فلا نِلْتُ نُعْمَى بَعْدَها تُوجبُ الشُّكرَا

* * *

الفصل الثالث: من إخوانيّات أبي فراس الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي (٣٢٠ - ٣٥٧هـ = ٩٣٢ - ٩٦٨م)، ابن عم سيف الدولة. كان سيف الدولة يحبّه ويجلّه ويستصحبه في غزواته ويقدّمه على سائر قومه، وقلّده منبجًا وحران وأعمالها. جرح في معركة مع الروم، فأسروه (سنة ٣٥١هـ)، فعُرِف شعره في الأسر بالروميّات. له «ديوان شعر».

* * *

كتب بالقصيدة التالية إلى سيف الدولة من الإسار، وقد بلغه عنه ما أنكره:

أما لجميلٍ عندكنَّ ثوابُ؟ ... ولا لِمُسيءٍ عندكنَّ مَتابُ
لقد ضلَّ مَن تَحوي هواهُ خريدةٌ ... وقد ذلَّ مَن تَقضي عليه كعابُ
ولكنني، والحمدُ للهِ، حازمٌ ... أعِزُّ إذا ذلَّتْ لهن رِقابُ
ولا تَملكُ الحسناءُ قلبي كلَّهُ ... وإنْ شَمِلَتْها رِقَّةٌ وشَبابُ
وأَجري ولا أُعطي الهوَى فضلَ مِقْودي ... وأهفو ولا يَخْفَى عليَّ صَوابُ
إذا الخِلُّ لم يَهجُرْكَ إلا مَلالةً ... فليسَ لهُ إلا الفراقَ عِتابُ
إذا لم أجِدْ في بلدةٍ ما أريدُهُ ... فعندي لأُخرى عَزْمةٌ ورِكابُ
وليس فراقٌ ما استَطعتُ، فإن يكنْ ... فراقٌ على حالٍ، فليسَ إيابُ
صَبورٌ، ولو لم تَبقَ مني بقيَّةٌ ... قَؤولٌ، ولو أنّ السيوفَ جَوابُ

وَقُورٌ، وأهوالُ الزمانِ تَنوشُني ... وللموتِ حَولي جِيئةٌ وذَهابُ[١]

وأَلحظ أحوالَ الزّمانِ بمُقلةٍ ... بها الصِّدقُ صِدقٌ، والكِذابُ كِذابُ

بمَنْ يَثِقُ الإِنسانُ فيما يَنوبُهُ ... ومن أينَ للحرِّ الكريمِ صِحابُ؟

وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلَّهمْ ... ذئابًا على أجسادهنَّ ثِيابُ

تَغابيتُ عن قَومي، فظنُّوا غَباوتي ... بمفرِقِ أغبانا حصًى وتُرابُ

ولو عَرفوني حقَّ معرفتي بهمْ ... إذًا عَلِمُوا أنّي شهدتُ وغابوا

وما كلُّ فعَّالٍ يُجازَى بفِعْلهِ ... ولا كُلُّ قوَّالٍ لَدَيَّ يُجابُ

وربَّ كلامٍ مرَّ فوقَ مَسامعي ... كما طنَّ في لُوحِ الهَجيرِ ذُبابُ[٢]

إلى اللهِ أشكو أنَّنا بمنازلٍ ... تَحكَّمُ في آسادِهنَّ كلابُ

تمرُّ الليالي ليس للنفعِ مَوضعٌ ... لديَّ، ولا للمُعْتفينَ جَنابُ[٣]

ولا شُدَّ لي سَرجٌ على ظَهرِ سابحٍ ... ولا ضُربَتْ لي بالعَراءِ قِبابُ

ولا بَرَقَتْ لي في اللقاءِ قَواطِعٌ ... ولا لَمَعَتْ لي في الحروبِ حِرابُ

ستذكرُ أيّامي نُميرُ وعامرٌ ... وكعبٌ على عِلاَّتِها وكِلابُ

أنا الجارُ لا زادي بطيءٌ عَليهمُ ... ولا دونَ مالي في الحوادثِ بابُ

ولا أطلبُ العَوراءَ[٤] منهمْ أُصِيبُها ... ولا عَورتي للطَّالبينَ تُصابُ

وأَسطو، وحبِّي ثابتٌ في قُلوبهمْ ... وأحلُمُ عن جُهَّالهمْ وأُهابُ

بني عَمِّنا ما يصنعُ السيفُ في الوغَى ... إذا فُلَّ منه مَضربٌ وذُبابُ؟

بني عمِّنا لا تُنكروا الودَّ بيننا ... شِدادٌ على غيرِ الهَوانِ صِلابُ

بني عمِّنا، نحن السَّواعدُ والظُّبَى ... ويوشِكُ يومًا أن يكونَ ضِرابُ

---

(١) الأهوال: المصائب. تنوشني: تتناولني.

(٢) الهجير: شدّة الحرّ.

(٣) المعتفون: طالبو المعروف. حناب· ناحية

(٤) العوراء: القبيحة وما يُستَحى به.

وإنَّ رجالًا ما ابْنُهم كابنِ أُختِهِمْ ... حَرِيُّونَ أن يُقضَى لهُم ويُهابُوا

فَعَنْ أيِّ عذرٍ إنْ دُعُوا ودُعيتُمُ ... أَبَيتُمْ، بني أعمامِنا، وأجابوا؟

وما أَدَّعي، ما يعلمُ اللهُ، غيرَهُ ... رِحابُ «عليٍّ» للعُفاةِ رِحابُ(١)

وأفعالُهُ للراغبين كريمةٌ ... وأموالُهُ للطّالبينَ نِهابُ

ولكنْ نَبا منهُ بكفِّي صارِمٌ ... وأظلَمَ في عينيَّ منهُ شِهابُ

وأبطأَ عَنّي والمنايا سَريعةٌ ... وللموتِ ظُفرٌ، قد أطلَّ، ونابُ

فإنْ لم يكنْ وُدٌّ قديمٌ نَعدُّهُ ... ولا نَسَبٌ دونَ الرجال قُرابُ

فأَحْوَطُ للإسلامِ أنْ لا تُضيعَني ... ولي عنكَ فيهِ حَوطَةٌ ومَنابُ

ولكنّني راضٍ على كلِّ حالةٍ ... ليُعلَمَ أيُّ الحالتين سَرابُ

وما زِلتُ أرضَى بالقليل محبَّةً ... لديكَ، وما دونَ الكثيرِ حِجابُ

وأطلُبُ إبقاءً على الوُدِّ أرضَهُ ... وذِكري مُنًى في غيرِها وطِلابُ

كذاك الوِدادُ المحضُ لا يُرتَجَى لهُ ... ثوابٌ، ولا يُخشَى عليه ثوابُ

وقد كنت أخشى الهجرَ والشَّملُ جامِعٌ ... وفي كلِّ يومٍ لفتَةٌ وخِطابُ

فكيفَ وفيما بينَنا مُلكُ قيصرٍ ... وللبحرِ حَولي زَخرةٌ وعُبابُ؟

أَمِنْ بعدِ بَذْلِ النفْسِ فيما تُريدُهُ ... أُجابُ بمُرِّ العَتْبِ حين أُجابُ؟

فلَيْتَكَ تَحلو، والحياةُ مريرةٌ ... وليتَكَ ترضَى، والأنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بَيْني وبَينَكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خَرابُ

إذا صحَّ منكَ الوُدُّ فالمالُ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرابُ

فيا ليتَ شُرْبي مِن ودادِكَ صافيًا ... وشُرْبيَ من ماءِ الفراتِ سَرابُ

* * *

---

(١) رحاب ج رحبة؛ الأولى بمعنى الساحة والثانية بمعنى الواسعة.

كتب أبو فراس إلى القاضي أبي الحصين معاتبًا على تأخّره بالكتابة إليه:

وَيدٍ يَراها الدَّهرُ غيرَ ذَميمةٍ   تَمحو إساءَتَه إليَّ وتَغفِرُ
أهدتْ إليَّ مودَّةً من صاحبٍ   تَزكو المودَّةُ في ثَراهُ وتُثمرُ
عَلِقتْ يدي منه بعِلْقِ مضَنَّةٍ   ممّا يُصانُ على الزَّمانِ ويُدَّخَرُ
لكنني من بعضِ أمري عاتبٌ   والحرُّ يحتملُ الصديقَ، ويصبرُ
وإذا وجدتُ على الصديق شَكْوتُهُ   سِرًّا إليه، وفي المحافلِ أشكُر
ما بالُ شِعري لا يجيءُ جوابُهُ   سَحبانُ عندَكَ باقلٌ، لا أعذُرُ؟

* * *

وكتب أبو محمد بن أفلح إلى أبي فراس كتابًا فاستحسن نثره ونظمه. فأجابه أبو فراس:

وافى كتابُك مَطويًّا على نُزَهٍ   يُقسِّمُ الحُسنَ بين السمْعِ والبصَرِ
عُذوبةٌ صَدرتْ عن منطقٍ جَدَدٍ   كالماءِ يخرُجُ يَنبوعًا منَ الحَجَرِ
ووارِدٌ موردًا أُنسًا يؤكِّدُهُ   صُدورُهُ عن سليمِ الوِردِ والصَّدَرِ
وروضةٌ من رياضِ الفكرِ دَبَّجها   صَوبُ القرائحِ لا صوبٌ من المطرِ
كأنما نَشرتْ أيدي الربيعِ بها   بُرْدًا من الوشْيِ أو ثوبًا من الحِبَرِ

* * *

وكتب إلى غلاميه صافٍ ومنصور، وهو في الأسر:

يا خليليَّ بالشآمِ أفيقا   هل تُحسّانِ لي رفيقًا رفيقا؟
كثُر الغدرُ، والخيانةُ في النّا   سِ، فما إنْ أرى صديقًا صدوقا
قلَّ أهلُ الوَفاءِ، واتَّبعَ النا   سُ مِنَ الغَدْرِ والجَفاءِ طريقا

لا رعَى الله، يا خليليَّ، دهرًا فـرَّقـتْـنـا صـروفُـه تـفـريـقـا
كنتُ مولاكما، وما كنتُ إلّا والدًا مُحسنًا، وعمًّا شفيقا
فاذكراني، وكيف لا تَذْكراني كلَّما استخْوَنَ الصديقُ الصدوقا
بـتُّ أبكيكُما، وإنَّ عجيبًا أن يبيتَ الأسيرُ يبكي الطَّليقا

* * *

واعتذر إليه أبو الفضل عن تقصير، فأجابه:

العُذرُ منكَ، على الحالاتِ، مَقبولُ والعَتْبُ منكَ، على العِلَّاتِ، محمولُ
لولا اشْتياقيَ لم أَقْلقْ لبُعدِكُم ولا غَدا في زَماني بَعدَكمْ طُولُ
وكلُّ مُنْتَظَرٍ، إلَّاكَ، مُحتَقَرٌ وكلُّ شيءٍ، سوَى لقياكَ، مَمْلولُ

الفصل الرابع: من إخوانيّات وليّ الدين يكن

هو ولي الدين بن حسن سري بن ابراهيم باشا يكن (١٢٩٠ - ١٣٣٩هـ = ١٨٧٣ - ١٩٢١م). أديب وشاعر. تركيّ الأصل. ولد بالآستانة وجيء به الى القاهرة طفلاً، فتوفي أبوه. فكفله عمه علي حيدر وعلّمه، فمال الى الأدب، وكتب في الصحف فابتدأت شهرته. نفاه السلطان عبد الحميد الى ولاية سيواس، فبقي فيها الى أن أُعلن الدستور العثماني، فانتقل الى مصر، وعاد الى الكتابة، فنشر كتابه «المعلوم والمجهول»، وله «ديوان شعر».

* * *

رسالة عتاب من ولي الدّين يكن إلى الأديبة ميّ:

٤ نوفمبر ١٩١٥

يا شمس الآداب في سماء الشرق:

قيل لي إنّك غاضبة، فكان ما قيل كَسَهْم نفذ من الكبد من غير أن يقتل فيريح. ولكن ما ذنبي الذي أستوجب به هذا العقاب؟ ناشدتكِ عهود الأدب. لا تغضبي. دومي على ما عوّدتِني. إنّي سأسعى بجسماني مسترضيًا كما تسعى إليكِ روحي مراضية. وإذا لم أجد أملاً في رضاكِ،

نقمت على الكائنات، فنفَّست عن حسراتي حتى تذوب جبالها، ويُمحى كتاب سمائها.

المخلص

وليّ الدين يكن

الفصل الخامس: من إخوانيّات جبران خليل جبران

هو جبران بن خليل بن مخائيل بن سعد (١٣٠٠-١٣٤٩هـ. = ١٨٨٣-١٩٣١م.) من أحفاد يوسف جبران الماروني البشعلاني اللبناني. نابغة الكتّاب المعاصرين في المهجر الأميركي. أصله من دمشق. نزح أحد أجداده الى بعلبك ثم إلى قرية «بشعلا» في لبنان. وانتقل جده الى قرية بشري. وفيها ولد وتعلم ببيروت. وأقام أشهرًا بباريس. ورحل إلى الولايات المتحدة. وتوجه الى أميركا فأقام في نيويورك إلى أن تُوُفِّي. ونقل رفاته الى مسقط رأسه «بشري». من مؤلفاته «الأرواح المتمردة»، و«الأجنحة المتكسرة»، و«العواصف».

* * *

١- من رسائله إلى أمين الغريّب

مساء الجمعة ٥ تموز سنة ١٩٠٥

أخي أمين:

سامحني فقد أخطأت أمامك. ولكن أنت تعلم طبعًا بأنني لم أكتب إليك تلك الرسالة إلا بعد أن وصلني كتاب من نيويورك يقول بأنك ذهبت إلى كلوستر.

هذه نكتة اجتماعية - يقول الرجل ذو النظر الضئيل: «كيف أقدر أن أغفر لقريبي»، فتجيبه الحقيقة قائلة «كيفَ تقدر أن تستغفر من قريبك»، ولكن مَن مِنّا يا أمين يستطيع أن يسمع الحقيقة متكلمة قبل أن يرى الأخبار وجهًا لوجه؟ أما أنا فقد تعلمت أن لا أعزل صديقي قبل الاستقصاء والاستطلاع!!

قرأت اليوم «العناصر المتضاربة» فاستحسنتها. لا تبتسم يا أمين فأنا لا أستحسن كل ما يكتبه جبران لأن الأقوال والأنغام التي أسمعها في عالم أحلامي هي غير تلك الأقوال التي أراها مخطوطة على الطروس. ولكن سوف أنمو يا أمين وأصبح قادرًا على حبس بعض تلك الأنغام في ظلمة الحبر.

كان يجب أن تكون الحكاية الثالثة من الكتاب بين يديك في هذا الأسبوع ولكن صحتي في هذه الأيام عاطلة جدًا وأفكاري متضعضعة جدًا، فإياك أن تحسبني من طائفة التواني والكسل.

لو كنت أعلم بأن كلمتي عن أخينا أسعد[١] ستصير عمومية لكنت كتبت أكثر من كلمة لأن لأسعد أعمالاً شريفة حَرِيَّة بالكلام الكبير والجميل. فليعش الفرقد الكبير طويلاً.

ما قولك، أدامَ الله فضلك، في كتابات شبل أفندي دمّوس[٢] عن الجمعية العمومية في جريدة الجامعة الأسبوعية؟ ماذا يقول المهاجر فيما لو قام السوريون وأسّسوا جمعية شبيهة «بمجلس الأمة»! أنا أعتقد أن الإصلاح

---

(١) هو أسعد رستم. شاعر لبناني مهجري (١٨٧٨-١٩٦٩م)

(٢) شبل دمّوس: أديب ونائب لبناني مثّل منطقة البقاع في المجلس النيابي دورات عدّة.

لا يكون بتأسيس الجمعيات بل هو بارتقاء الفرد. فإذا كان الفرد منحطًا فالجمعية لا تقدر أن تجعله مرتقيًا، وإن كان مرتقيًا لا تساعده على بثّ روحه في نفوس المنحطِّين.

سلام عليك وعلى الجميع من مريانا وأخيها أخيك.

جبران

* * *

١٢ شباط سنة ١٩٠٨

أخي أمين:

اسمع يا أمين فأخبرك عن أشياء لم يعلم بها أحد سوى شقيقتي مريانا.

اسمعْ وتأمَّلْ وافرحْ قليلاً مع جيرانك. أنا سوف أذهب إلى باريس عاصمة الفنون بعد بضعة شهور من أواخر الربيع الآتي، وسوف أبقى في باريس سنة كاملة. لهذه السنة أهمية عظيمة بين سني حياتي لأنها ستكون إن شاء الله بدء فصل جديد من رواية عمري، لأنني سوف أنضم في تلك المدينة العظيمة إلى لجنة تصويرية عظيمة، وأشتغل تحت مراقبتها، وأحصل على فائدة كبيرة من انتقاداتها وملاحظاتها في هذا الفن الجميل. وسواء حصلت على فائدة أو لم أحصل، فمجرَّد رجوعي إلى أميركا من باريس يجعل لرسومي شهرة ويجعل الأغنياء العميان يتهافتون عليها ليس لأنها جميلة بل لأنها من عمل رجل صرف سنة في باريس بين أعظم المصورين في أوروبا. أنا لم أحلم قط بهذه السفرة، ولا خطرت على بالي، لأن ما تستدعيه من النفقات يجعلها مستحيلة لدي، ولكن السماء

يا أمين قد رتَّبت كل ذلك على غير معرفة مني، وفتحت أمامي السبيل إلى باريس. فأنا سوف أذهب وأصرف سنة كاملة على نفقة السماء نبع الخيرات.

والآن وقد سمعت حكايتي يا أمين، اعلمْ بأن وجودي في بوسطن لم يكن ناجمًا عن محبتي لها وبغضي نيويورك، بل لأن في بوسطن ملائكة تريني المستقبل مشعشعًا وتفتح أمامي سبيل النجاح الأدبي والمادي. ولكني سواء كنت في بوسطن أو باريس أو باكين، «فالمهاجر» يبقى الفردوس الذي تسكنه نفسي والمسرح الذي يرقص عليه قلبي. وأنت تعلم يا أمين بأن وجودي في باريس سنة يجعلني أكتب عن أشياء لا يمكنني أن أتخيلها في هذه البلاد الآلية التجارية وتحت هذا الفضاء المملوء بالضجيج، ناهيك عن الدروس الاجتماعية التي أكتسبها في عاصمة عواصم الدنيا حيث عاش روسو ولامارتين وهوغو؛ وحيث يعبد الناس الفنون الجميلة مثلما يعبد الأميركان الدولار القوي الذي علمتني الأيام أن أحترمه واعتبره كأعظم واسطة بين الإنسان وأمانيه.

وأنا سوف أحترم «المهاجر» بكل قواي في غيابك، فابعثُ إليه بشيء لكل عدد سوف أسكب على صفحاته المحبوبة كلّ ما في قلبي ونفسي ودماغي من العواطف والأميال والمبادئ ولا أطلب لقاء ذلك سوى رضاك وغيرتك عليّ وعلى مستقبلي، ولكن إن شئت أن تضيف إلى أفضالك المعنوية الكثيرة فضلاً ماديًا، فأوصي إدارة «المهاجر» بكتاب «الأرواح المتمردة»، ودَعْها تساعدني في استثمار سهر الليالي وتهتم معي ببيع الكتاب إلى القراء والتجار في نيويورك والداخلية.

وأنت تعلم يا أمين بأنني لا أستطيع أن أجعل للكتابة غلّة بدون مساعدة «المهاجر». كنْ براحة بال. لا تشغل أفكارك بغير الفرح بلقاء الأهل ومرأى لبنان الجميل، أنت تعبت كثيرًا في الخمسة الأعوام الأخيرة فيجب أن ترتاح قليلاً، ويجب أن لا تدع الاهتمام بالغد يعانق راحتك. جريدة المهاجر تبقى عروسة الجرائد مهما تقلبت الأحوال. رسالة من أمين وقصيدة من أسعد رستم ومقالة من جبران كل أسبوع تكفي لتجعل العالم العربي فاتحًا عينيه نحو ٢١ واشنطن[١].

مُقدِّمتك لكتاب الأرواح المتمردة[٢] سرَّتني جدًا، لأنها خالية من الكلام الشخصي، وقد بعثت يوم الاثنين بمقالة صغيرة إلى المهاجر، فهل وصلت؟ اكتبْ لي كلمة صغيرة جوابًا على كتابي هذا. سوف أكتب إليك. أكتب إليك أكثر من رسالة قبل سفرك. لا تدع شيئًا في العالم يقف بين قلبك والفرح بالسفر إلى لبنان. لا يمكننا أن نلتقي ونهز الأكف، ولكن سوف نلتقي بالروح والفكر، في كل يوم بل في كل ساعة. إن نواميس الزمان والمكان والمسافة لا تؤثر على الأرواح. سبعة آلاف ميل، مثل ميل واحد، وألفا سنة مثل دقيقة واحدة عند الروح. مريانا[٣] تسلم عليك وتدعو لك بالتوفيق، والله يريني وجهك بخير يا أمين. لتباركك السماء بقدر محبة أخيك.

جبران

---

(١) عنوان مكتب الجريدة.
(٢) الأرواح المتمردة: كتاب لجبران صدر سنة ١٩٠٨.
(٣) مريانا شقيقة جبران.

٢- من رسائله إلى سليم سركيس

نيويورك في ٦ أكتوبر سنة ١٩١٢[1]

عزيزي سركيس أفندي:

أنا باعث إليك بحكاية أوحتها إليّ عرائس الجان لتكريم خليل أفندي[2] وهي كما تراها قصيرة بجانب هيبة الأمير العظيم والشاعر الكبير وطويلة بجانب مقتضبات الكتاب والشعراء الذين يميلون إلى ما قَلّ ودَلّ خصوصًا في الحفلات الإكرامية. ولكن ما العمل وعرائس الجان قد بعثن إلي بموضوع يستدعي قليلاً من الأسباب؟

تفضَّلْ بقبول شكري وامتناني لدعوتك إياي إلى الاشتراك بتكريم شاعر كبير يسكب روحه خمراً في كؤوس النهضة العربية الحاضرة، ويحرق قلبه بخوراً أمام القطرين فيجعلهما أكثر تحبباً وأشد علاقة.

وتكرَّمْ بقبول تحيتي المشفوعة باحترامي وإعجابي.

جبران

* * *

---

(١) بعث بها إلى مجلة سركيس بمناسبة الحملة التكريمية التي أقيمت لخليل مطران بالجامعة المصرية كمقدمة لكلمة «الشاعر البعلبكي» وهي مشورة في كتاب «العواصف»

(٢) خليل مطران (١٨٧١-١٩٤٩م) شاعر لساني كبير عاش في مصر، لُقب بشاعر القطرين. أشهر مؤلفاته «ديوان الخليل»

٣- من رسائله إلى أمين مشرق

نيويورك ٢٣ تشرين ثاني ١٩١٩

أخي العزيز أمين:

سلام الله عليك وبعد، فقد جاءت رسالتك اللطيفة، فشكرتُ لك غيرتك الأدبية النادرة واهتمامك بنشر كتاب «المواكب» بين أصحابك ومعارفك. تلك منّة أتقبلها بنفس العاطفة التي أوحت إليك السعي في هذا السبيل، أعني تلك العاطفة التي لا توجدها سوى الروابط المعنوية. لقد بعثت إليك اليوم حسب إشارتك بواحد وخمسين نسخة من «المواكب»، وبنسخة واحدة من «المجنون» مع الأمل بأنك ستجد في الكتابين شيئًا يروقك ويلذك. أما هذه الكتب فمرسلة إليك في ثمانية عشر بقجة مع البريد فالرجاء أن تصل إليك سالمة.

أنا بالطبع من الذين يشاطرونك الأسف على احتجاب «الفنون»، ولقد حاولت مع بعض الأصدقاء مساعدة نسيب عريضة على إحياء المجلة فلم نفلح لأسباب عديدة أهمّها غلاء حاجيات الطبع والنشر، وذهاب ثقة المتموّلين بالمشروع، بيد أننا لم نزل متمسّكين بأذيال الأمل، وما لا يتمّ في دهر قد يتمّ في دقيقة.

هذا وإني أرجوك أن تقبل تحيتي وسلامي ومودتي والله يحفظك.

للمخلص

جبران خليل جبران

٧ تموز ١٩٣٠

أخي العزيز أمين:

سلام على روحك الطيّبة الجوادة. وبعد، فقد تسلّمت هديتك - هنا في مدينة بوسطن - فمزّقت غلافاتها أمام رهط من إخوان الصفا وأخرجتها إلى نور النهار آيةً علوية تسخر بكلّ ما في هذه الحاضرة من القبّعات والعمائم، بل وتضحك من خشونة التيجان في متحف الفنون الجميلة. لله درك فقد عرفت كيف أن توقفني مفاخراً برأس مرفوع يكاد يناطح المجرّة... ولقد شعرت بحاسة أفخر من الفخر، شعرت بمجرد النظر إلى هذه التحفة أن حرارة النهار أخذت بالهبوط إلى درجة «الانتعاش» الربانية، فترنمت روحي في داخلي وتمايلت شاكرة مسبّحة.

سوف أحمل معروفك على رأسي ما بقيت حياً. والله يبقيك أخاً عزيزاً.

لجبران

* * *

٤- من رسائله إلى ميخائيل نعيمة

بوسطن في ٢٤ أيار سنة ١٩٢٠

أخي ميخائيل:

سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير، وبعد فإن الرابطة القلمية ستعقد اجتماعًا رسمياً مساء الغد (الأربعاء)، أما أنا فلسوء حظي سأكون بعيداً عنكم. ولولا محاضرة عليَّ أن ألقيها مساء الخميس رجعت إلى

نيويورك كرامة لعيني الرابطة القلمية، فإن حسبتم إلقاء المحاضرة عذراً شرعياً شكرت لكم كرمكم والتفاتكم هذا، وإلا فإني سأدفع الخمس ريالات (جزاء نقدي) بكل طيبة خاطر، وحبة مسك!.

كانت هذه المدينة في الأيام الغابرة تدعى مدينة العلوم والفنون أما اليوم فهي مدينة التقاليد. أما نفوس سكانها فمتحجِّرة وأما أفكارهم فعتيقة بالية.

والغريب يا ميخائيل أن المتحجِّر يتكبَّر ويتعجرف دائمًا، والعتيق البالي يتبجَّح ويتشامخ أبدًا. وكم مرة جالست أحد أساتذة هارفرد وشعرت بأني في حضرة شيخ من مشايخ الأزهر، وكم مرة حادثت سيدة بوسطونية وسمعت من فهمها ورقيها ما كنت أسمعه من جهالة وبساطة عجائز سوريا. الحياة كلها واحدة يا ميخائيل، ومظاهر الحياة في قرى لبنان مثلها في بوسطن ونيويورك وسان فرنسيسكو.

اذكر اسمي مشفوعًا بمودتي أمام إخواني العمال في الرابطة القلمية، والله يحفظك عزيزًا لأخيك.

جبران

* * *

بوسطن مساء الأربعاء ١٩٢٠

أخي ميخائيل:

قرأت الساعة مقالتك في «العواصف» فماذا يا ترى أقول لك يا ميخائيل؟ لقد وضعتَ بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت أكبر مما هي حقيقة، وهذا مما يجعلني أن أخجل من نفسي. لقد ألقيت

بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقي فهل أستطيع أن أقوم بها. هل أستطيع تحقيق الفكرة الأساسية في نظرياتك؟ أَتَبَيَّنُكَ منشئاً هذه المقالة النفيسة وأنت تنظر إلى مستقبلي لا إلى ماضيَّ - لأن الماضي كان خيوطاً ولم يكن نسيجاً، كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناء. أَتَبَيَّنُكَ تنظر إليَّ بعين الأمل لا بعين النقد، فأندم على الكثير من الماضي، وفي الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة، فإن كان هذا ما أردت أن تفعله بي ولي، عندما كتبت نقدك، فقد نجحت يا ميخائيل.

قد استحسنتُ أوراق «الرابطة» إلى درجة قصوى غير أنني أرى الآية «لله كنوز تحت العرش الخ» يجب أن تكون ظاهرة بوضوح تام؛ أما نشر أسماء الموظفين والأعضاء فلا بد منه إذا كنا نُريد إيجاد التأثير المعنوي المطلوب. وكلّ ناظر إلى ورقة من أوراق «الرابطة» يسأل من هم عمال الرابطة القلمية؟ ولكنني مع ذلك أفضل أن تنشر الأسماء بأصغر أحرف عربية موجودة.

بكل أسف يا ميخائيل لا أستطيع الرجوع إلى نيويورك قبل منتصف الأسبوع الآتي، فأنا مقيَّد ببعض المشاكل الحيوية في هذه المدينة المكروهة ولولا هذه المشاكل، لكنت ذهبت وشقيقتي إلى البرية منذ أسبوعين، فماذا العمل؟

اذهبوا إلى ملفرد، واملأوا كؤوسكم من خمرة الروح وخمرة العنب، ولكن لا تنسوا أخاكم ومحبكم المشتاق إليكم.

جبران

* * *

٥- رسالة من جبران إلى ماريتا جياكوبي.

الثلاثاء-تاريخ ختم البريد ٣ آب ١٩٢٦-بوسطن

عزيزتي، عزيزتي ماريتا:

أرجو أن تسامحيني، لأنّني لم أكتب إليك من وقت أقرب. لم أكن في صحّة جيّدة، لكنّني الآن أحسن كثيراً، وكلّ شيء سيكون على ما يرام إذا استطعت أن تكوني صبورة وقتاً أطول قليلاً. ومهما يحدث ينبغي أن تكوني دائماً: «سيّدتنا الصغيرة المتفهّمة». رسائل أو لا رسائل، لا بدّ من أن تسمعي دائماً صوتي في ساعاتك الصامتة. ويجب أن تعرفي دائماً أنّني أحبّ الطفلة في قلبي، وأنني أباركها في كلّ ساعة من اليوم. إنّني ذاهب إلى الريف لمدّة يومين أو ثلاثة أيام، ولكنّني لا أظن أنّ لي راحة هناك أكثر من هنا. إلاّ أنّه سيكون أكثر اخضراراً.

وعسى النهارات والليالي تغرّد في قلبك العزيز العزيز.

أرجو منك أن تكتبي إليّ دائماً.

* * *

الفصل السادس: من إخوانيّات أحمد شوقي

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد (١٢٨٥هـ./ ١٨٦٨م. - ١٣٥١هـ./ ١٩٣٢م.). مولده ووفاته في القاهرة. عاش حياته كلّها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. وعالج أكثر فنونه، فجرى شعره على كلّ لسان. من آثاره «الشوقيّات» وهو ديوان شعره، و «دول العرب»، و«مصرع كليوباطره»، و«عنترة»، و«مجنون ليلى»، و«قمبيز»، وغيرها.

* * *

كتب شوقي الى صديقه إسماعيل باشا صبري يهنّئه بالسلامة، على أثر حادثة في القطار.

أُصيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصبْت

أَتَتْني الصُّحْفُ عنك مُخبِّرَاتٍ ... بحادِثةٍ ولا كالحادِثاتِ

بخَطبِكَ في القِطار أَبا حُسَيْنٍ ... وليس منَ الخُطوبِ الهيِّناتِ

أُصيبَ المجدُ يومَ أَصِبْتَ فيه ... ولم تخلُ الفَضيلةُ منْ شَكاةِ

وساءَ الناس أَنْ كبَتِ المعالي ... وأَزعجَهُمْ عِثارُ المَكرُماتِ

ولستُ بناسِ الآدابَ لمَّا ... تَراءَتْ رَبَّها مُتلهِّفاتِ

وكان الشِّعْرُ أَجزَعَها فُؤادًا وأَحرَصَها لدَيْكَ على حياة
هَجَرْتَ القَوْلَ أَيّاماً قِصارًا فكانَتْ فَترةً للمُعْجِزاتِ
وإنّ ليالِياً أمسكْت فيها لَسُودٌ لليَراعِ وللدَّواة
فَقُلْ لي عن رُضوضِك كيف أَمسْتْ؟ فقَلبي في رُضوضٍ مُؤلِماتِ
وهَبْ لي مِنك خَطًّا أَو رسولاً يُبَلِّغُ عَنكَ كُلَّ الطَّيِّباتِ

* * *

وكتب إليه يهنئه بتعيينه وكيلاً لنظارة الحقانيّة:

سألْتُكَ بالْوِدَادِ

سأَلتُكَ بالوِدادِ أَبا حُسيْنٍ وبالذِّمَمِ السَّوالِف والعُهودِ
وحُبٌّ كامِنٍ لكَ في فؤادي وآخَرَ في فُؤادِكَ لي أكيدِ
أَحَقٌّ أَنَّ مَطْوِيَّ الليالي سَيُنشَرُ بين أَحمدَ والوليدِ؟[1]
وأَنَّ مناهِلاً كُنّا لدَيْها سَتَدْنو للتَّأَنُّسِ والوُرودِ؟
قدومُكَ في رُقِيِّكِ في نَصيبي سُعودٌ في سُعودٍ في سعودِ
وَفَدْتَ على رُبوعِكَ غِبَّ نَأيٍ وكنتَ البذْرَ مأُمولَ الوُفودِ
لئِنْ رَفعوكَ مَنزلةً فأَعلى لقدْ خُلِقَ الأَهِلَّةُ للصُّعودِ
وأُقسِمُ ما لرفعَتِكَ انتِهاءٌ ولا فيها احتمالٌ للمزيدِ

* * *

---

(١) أحمد والوليد المتنبّي والبحتريّ.

وكتب الى صديقه حمزة بك فهمي يهنّئه برتبة المتمايز الرفيعة:

اَهْنَأْ أَخِي

قالوا: «تمايَزَ» حمزةُ قلتُ: «التَّمَايُزُ» من قديمِ
لو لمْ يَمِيزوهُ بها لامْتازَ بالخُلُقِ العظيمِ
رُتَبٌ كرائِمُ في العُلا وُجِّهْنَ منكَ إلى كريمِ
فاهنَأْ أَخِي بِوُفودِها وتلقَّ تَهنِئةَ الحَميمِ
وارْقَ المنازلَ كلَّها حتى تُنيفَ على النُّجومِ

* * *

بين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم

بعث أحمد شوقي، وهو في منفاه في إسبانيا، إلى صديقه الشاعر حافظ إبراهيم الأبيات الثلاثة التالية:

يا ساكِني مِصْرَ إنّا لا نَزالُ على عَهْدِ الوَفاءِ، وَإِنْ غِبْنا، مُقيمينا
هَلاَّ بَعَثْتُمْ لَنا مِنْ ماءِ نَهْرِكُمُ شَيْئًا نَبُلُّ بِهِ أَحْشاءَ صادِينا[1]
كُلُّ المناهِلِ[2] بَعْدَ النِّيلِ آسِنَةٌ ما أَبْعَدَ النِّيلَ إلاّ عَنْ أَمانينا

فأجابه حافظ إبراهيم على الوزن نفسه، والقافية نفسها:

عَجِبْتُ للنِّيلِ يَدْرِي أَنَّ بُلْبُلَهُ صادٍ، وَيَسْقِي رُبا مِصْرٍ وَيَسْقِينا
واللهِ ما طابَ لِلأَصْحابِ مَوْرِدُهُ ولا ٱرْتَضَوا بَعْدَكُمْ مِنْ عَيْشِهِمْ لِينا
لَمْ تَنْأَ[3] عَنْهُ، وإنْ فارَقْتَ شاطِئَهُ وَقَدْ نَأَينا، وإنْ كُنا مُقيمينا

* * *

(١) الصادي: الظمآن.
(٢) المناهل: موارد الماء.
(٣) لم تنأ: لم تبعد

الفصل السّابع: من إخوانيّات أبي القاسم الشابِّيّ

هو أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشابِّيّ (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م - ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) شاعر تونسيّ، ولد في قرية الشابيَّة من ضواحي توزر (عاصمة الواحات التونسيّة في الجنوب)، وقرأ العربيّة بالمعهد الزيتونيّ بتونس، وتخرَّج بمدرسة الحقوق التونسيَّة، وعلت شهرته. مات شابًّا بمرض الصدر، ودُفن في «روضة الشابِّيّ» بقريته. كان شديد الإعجاب والتأثّر بأدب المهاجرة، وعلى رأسهم جبران، شديد الإخلاص في توجّهه إلى بلاده. له «ديوان شعر»، وكتاب «الخيال الشابِّيّ عند العرب»، و«آثار الشابِّيّ»، و«مذكّرات».

* * *

وقد اخترنا من رسائله إلى صديقه محمد الحليويّ الرسائل التالية:

تونس في ١٣ رجب سنة ١٣٤٨[١]

أخي الفاضل:

قد انتظرت كتابك (المطول) ولكن عَبَثًا كانت تمضي الساعات ثم الايام ثم الأسابيع وأخشى أن تلحق بها الشهور.

---

(١) ١٥ ديسمبر ١٩٢٩.

وبعد، فماذا أخبرك به من أنباء العاصمة؟ إني ليستخفّني الفرح حين أعلمك أنّ العناية السماوية قد جادت علينا بمجلة أدبية ستصرف همها الى الادب والى القيام بواجبه في هاته الديار، وإني أعلم انك ستقول كلا بل هذا وهم باطل وسراب كذوب، فكثيرًا ما سمعنا مثل هاته الأنباء الجميلة المستحبّة فاستخفّتنا، ولكن ما لعبت بألبابنا خيالاتها حتى تكشفت عن سراب فإذا الكل باطل. . . واذا الكل قبضة من ضباب. . . اعلم انك ستقول هذا واكثر منه ولكن ليطمئن بالك ولتعتقد ان هذا الأمل المنشود قد أصبح حقيقة ماثلة ما بين عشيّة وضحاها، فقد أحرز الأخ زين العابدين على تلك المُنية التي طالما صبا اليها وهي اصدار مجلة أدبية علمية. أجل أحرز على مجلة اختار لها اسم «العالم». وقد أخذ في طبع هاته المجلة وفي إعداد العدة الأدبية لها حتى تكون جاهزة كاملة آخر هذا الشهر الافرنجي وحتى تحيي الناس في رأس هاته السنة وقد أخذ مني قطعة شعرية لنشرها ضمن مجلته. ولا تظنن ان تلك أباطيل، فإن كثيرا من المقالات الأدبية قد قدمت للطبع بمحضر مني بل ان بعضها قد كنت حاضرًا لتصحيح مسودته المطبعية «بروفة».

ولذا فالرجاء ايها الاخ ان تبعث إليّ في أقرب وقت ممكن بنفثة من نفثات يراعك أو بحث من أبحاثك القيمة الممتعة حتى يمكن نشرها في العدد الأول من اعداد المجلة. لأنني لا يروق لي أن يؤخر مقالك شهرًا آخر لأن المجلة شهرية في هذا الأوان على الأقل. لا أزيدك تأكيدًا في المبادرة بتوجيه بعض أبحاثك الأدبية إليّ على جناح العجل فإنني ليلذ لي أن تطّلع الأمة التونسية على ثمرات أبنائها الشبان المخلصين، ويلذ لي بالأخص أن يكون العدد الأول حافلاً جمّ الخصوبة والانتاج حتى يكون شجا في حناجر

أحلاس الجمود وطعنة في أكبادهم وغلّة لا ينطفىء لها لهب في عباد الموت وأمساخ القديم.

وفي الختام تقبل تحية أخيك المخلص:

أبو القاسم الشابي

إنني أنتظر فأسرع بالجواب!

* * *

بني خلاد في ٢١ فيفري ١٩٣٠

أخي وصديقي العزيز:

يصلك طيّ هذا نبذة مما كتبته عن تولستوي وقد دفعني للكتابة عنه ما رأيت من تنديد صاحب الكلمة المنشورة في المجلة تحت عنوان «تونس وتولستوي» بتقاعسنا وعدم اهتمامنا برجال الفكر العالميين.

وإني لأستحيي أن أكون سببًا في تجشيمك متاعب لأجلي، فان كان في إرسال ما اكتب لك تكليف لك وشاغل يشغلك عن أعمالك فسأعدل عنه، وان كان الأمر خلاف ذلك فإني أكون مسرورًا جد السرور، متشرفًا كل الشرف أن تكون صلتي مع المجلة بواسطتك، وأكون مرتاح البال من هاته الناحية.

طالعت مرات ما كتبت عن الشعر فكان عندي أحسن ما في المجلة ولا شك أنك ستتولى زعامة التجديد الأدبي في تونس، ونكون نحن تحت لوائك.

وإني لأَسْتَحِثُّكَ على الكتابة في ذلك المعنى ولواحقه تحت عنوان خاص.

وكم أود أنا أيضًا أن أكتب تحت عنوان خاص كما كنا تحدثنا عن ذلك في العام الفارط.

سلامي الى كل الرفاق والى أخيك الصغير وعليك السلام والتحيات من أخيك المخلص على الدوام.

تونس: في شوال سنة ١٣٤٨[1]

أخي الفاضل، تحيةً وسلامًا:

وبعد، فإنني أهنئك بعيد الفطر المبارك، وأسأل الله لك أن يسبغ عليك مسراته، ويفضي عليك بركاته، ويريك من نعمه ألوانًا، وأن يرزقك عمرًا سعيدًا خصيبًا منتجًا، ينتعش به الأدب في هذا البلد القاحل الممحل الجديب، ويهب هبته التي تزعزع الجذوع النخرة، وتقتلع الصخور الجاثمة في وضح الطريق.

سألتني أيها الأخ هل في توجيه رسائلك الممتعة الراقية الى «العالم» بواسطتي تعب يلحقني أو وصب ينجر إليَّ؟ وماذا عساي أن أجيبك ان كان تساؤلك حقًّا؟ بل ماذا عساي أن أقول ان كنت جادًا في استفسارك؟ يعلم الله يا صديقي ان لا حرج علي في ذلك ولا نصب، وان ما ظننت أنه يكلفني نصبًا انما هو مبعث مسرة لنفسي وإيقاظ لعواطفي التي أركَدَتْها عقول الناس الخامدة وكلماتهم الباردة التي لا تنبه فكرة ولا تحرك وجدانًا. ألا يسرني يا صديقي أن أكون أنا أول من يطلع على ما تخطه يمناك وتقطر بسحره يراعتك الحية اليقظى؟

(١) مارس ١٩٣٠.

ولا أنسى أنّ أطلب عفوك فإنني ما تأخرت عن مراسلتك لحد الآن، إلا لأنني - علم الله - في شغل شاغل وعمل متواصل ونصب كامل لا راحة فيه ولا روح وانما هو كَرَّة إثر أخرى، ومجهود وراء مجهود ونفس صاعد كأنما يصعد في السماء، ومَلل أليم سميك الحجب ليس له ما يهلهل حواشيه أو يلقي على ظلمته قبسًا من نور أو شعلة وميض. لقد أعجبت وأعجب الناس برسالتك الأولى في «العالم»، اذ انها أحاطت بما عرضت له إحاطة لم نعثر على مثلها فيما رأيت، ولا عثر الناس. وليس لي من نقد عليها الا انك وعدت بمتابعة النقد ثم كففت، وعسى أن يكون ذلك غمامة عارضة لا تلبث ان تنقشع، ولا اخالك الا لا زلت جاهلاً نفسي يا صديقي، ولولا ذلك لما اعتذرت لي تلك الأعذار عن انتقادك كأنك به انما تُقدم على عمل منكر. لا أظن الصداقة تقف الى هذا الحد في التعرض لحركات العقول لأن الصداقة انما هي ضرب من حرية الروح ويقظة الفكر وانتباه العواطف، فان كانت تشلّ من حركة العقل وتصفد من أعضاد القرائح والعقول، فلا كانت هذه الصداقة، ولا كان قلب يحبوها شيئًا من حنوه وحنانه. لتنقدني يا صاحبي ما دمت ترى الحق في جانبك ولأَنتقدك ما دمت اعتقد إنني أتكلم بوحي الحقيقة المقدس دون أن يكون في ذلك ما يمس عاطفة أو يجرح ودًا أو يؤذي وجدانًا. ذلك مذهبي أصارحك به يا صديقي، وبودي أن تعلمه حق العلم وتدريه حق الدراية، فإنك ان علمته علمت ناحية من نفسي كانت لديك مجهولة، وأنا أود أن أكون لمن أوده وأصافيه واضح الجوانب لا تغشيه سحب ولا تحجبه ظلمات. . .

اما رسالتك الثانية فليس لديَّ متسع من الوقت لأُجيبك عنها، وحسبي أن أقول لك انها ستبرز في هذا العدد من «العالم الأدبي»، فقد

أصبح هكذا اسم المجلة - وأَنْ أُعلمك أنني بها جدًا معجب، فلله هي!

تقبل التحية من أخيك على الدوام:

أبي القاسم الشابي

تونس: في ٢٠ شوال ومارس سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م(١)

الأديب الكبير أخي الفاضل الأستاذ محمد الحليوي:

تحية وسلامًا.

وبعد، فإنني في شوق الى أخبارك وأحاديثك ونفثات قلمك وآيات بيانك. فقد وعدت انك ستقدم الحاضرة، ثم تَصَرَّمَ الاسبوع تلو الاسبوع والشهر اثر الشهر ولم يأت ولا جاءنا من ناحيتك نبأ، وقد وعدت أنك ستكتب وتكتب... عن كتابي وعن تولستوي، وعن أدب الفرنجة وانك ستترجم قطعًا فلسفية وآيات شعرية... وغيرها ولكنك لم تنفذ من كل وعودك شيئًا. ما هذا أيها الصديق؟ ان تونس لفي حاجة الى أبنائها الذين تتدفق في دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الأحلام... ان تونس لفي حاجة الى ان تتقدم بخطوات ثابتة الى سبل النور والزهور... ان تونس لفي حاجة الى ان ترفع رأسها عاليًا حتى تشاهد أنوار السماء وشموسه وحتى تقبل شفتيها أضواء النجوم... ولئن كانت تونس فقيرة الى هذا الضرب من ابنائها، هذا الضرب الذي يحن إلى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال وكلها احساس وشعور وعواطف، أقول إن كانت تونس فقيرة الى مثل هذا النوع من أبنائها، ليجب على هذا النفر القليل منهم أن

(١) ٢١ مارس ١٩٣٠.

يبذلوا كل ما في جهدهم من عزم وقوة وحمية وشباب، حتى يستطيعوا أن يكونوا نَشْئًا حيًّا مخلصًا شاعرًا بواجبه لأمته وللحياة وللوجود بأسره، وان يخلقوا في الواقع ذلك الوسط الحي الجميل الذي نتصوّره في أحلامنا، ثم نلتفت حوالينا فلا نلمح له أثرًا، واذن فلتكتب ولتعمل ولتطرد عنك خواطر الراحة والسكون، فان شعبك في حاجة اليك وليس لك شيء من العذر في أن تسكن ولا تعمل، فإنني لأجدر منك بالعذر وأنا بين دروس قانونية متوافرة تكد الذهن وتقتل الوجدان ومطالعات في القانون اكثر تغثية للنفس وإركادًا للعاطفة وإخمادًا للتفكير من أي شيء في هذه الدنيا. . إنني انتظر رسالتك الأدبية والودية بفارغ صبر، فإنها هي التي تزيل عني بعض هاته الوحشة التي أجدها في كتب القانون وبعض هذا التجهم والعبوس اللذين أُلفيهما في مطالعته. كنت حدثتك أن مقالك سيدرج في هذا العدد من العالم الأدبي، وذلك ما نبّأني به الأخ زين العابدين أول الأمر، ولكن ضاق نطاق العدد عنه، وسينشر في العدد المقبل آخر هذا الشهر، واليوم أرانيه الأخ زين العابدين مطبوعًا، ولكن هذا لا يدعوك الى أن تؤجل الكتابة الى الشهر المقبل. فإنَّ هذا هو الذي لا أرضاه.

ماذا أُحدثك عن العالم – أوّلًا – والعالم الأدبي – ثانيًا – لقد أحدثتَ من الرجة في الخارج ما أحدثت وغيرت نظرة الشرقيين الى تونس تغييرًا ما كانوا يتوقعونه، وأصبحوا ينظرون اليها نظرة لم تكن من قبل. لقد كتبت عنها كثير من الجرائد والمجلات الشرقية ولا يسعني أن أستوعب لك حديثها كلها، ولكنني اقول لك إن «المقتطف» قد قالت ما مضمونه إن من العار علينا أن تكون في تونس مثل هاته النهضة وهذا الشباب وهاته الحركة الفكرية ثم لا نعلم بها ولا نتحدث عنها، فإننا ما كنا نحسب في تونس مثل

هاته اليقظة الفكرية التي رأيناها في العالم التونسي، والذي أرانا أن الشعب التونسي شعب يحس بالحياة حقًا. أرأيت أيها الصديق كيف كانوا يتصوَّرون تونس قبل الآن؟ لا إخالهم كانوا يحسبونها الا كالسودان وأعماق افريقيا الجنوبية. وكتب شاب سوري الى الأخ زين العابدين كتابًا قيِّمًا مستفيضًا يستوعب ثلاث صفحات من الحجم الكبير يعجب «بالعالم» التونسي بطريقة لم يسبق اليها و«الاستاذ الشابي» الذي أبان عن فكرة قيمة دقيقة في فهم الشعر والنظر إليه - كما يقول الكاتب - ومصطفى أفندي خريف الذي شابه كثيرًا بشعره البائس الحزين شاعر الأسى وأمير البؤساء الاستاذ انور العطار شاعر دمشق وقصيدة السيد كرباكة التي تناول فيها غضبة شاعر العراق الرصافي، وقد أمضى هذا الكاتب رسالته بـ«فتى العرب»، وهو اسم طالما رأيته في بعض الصحافة الشرقية. كما جاء الى الأخ زين العابدين أيضًا كتاب آخر من مصر يعجب بهاته النهضة الفكرية في تونس، ويبتهج بها ويتمنى لها قوة وشبابًا.

وحتى رجعيو مصر، فقد بلغهم نبؤها وتخوَّفوه، فقد بعث الشيخ الخضر حسين التونسي الى الأخ زين العابدين يعجب بمشروعه وعمله، ولكنه يترآءى بين سطور الشكر انه يوجس خيفة، فقد قال له فيما قال: لقد خرجت المجلة بخطة جديدة ما كنا نتنظرها من تونس، فقد عرفنا تونس بلدًا هادئًا أمينًا مسالمًا بعيدًا عن كل الحركات الثورية والخطط الطافرة... الخ.

وبعد فإني أحييك الآن والى اللقاء!...

أخوك المخلص: أبو القاسم الشابي

تونس: في ١٥ جوان ١٩٣٠

أخي الفاضل الأعز:

تحية وسلامًا.

وبعد، فإني سأبدأ بنقدك قبل أن أبدأ بتهنئتك، ولتعذرني على ذلك فإن للمودة سورة وثورة قد يحركها أخف البواعث. أنت تعلم انني أكدت عليك العهود على أن نلتقي قبل سفرك ووثقت وأكدت. وتعهدت بذلك وافترقنا عليه، ولكنك اخلفت وعدك ونقضت عهدك وما كنت أظنك مخلافًا ولا اعهد فيك هاته الخلة.

ستقول ان لك أعذارًا ومنادح، ولكنني لا أريد أن أسمع هاته المعاذير ولا أن أقيم لها وزنًا. وحسبي انك اخلفت والسلام، وحسبك هذا من لوم الصديق.

وقد علمت عشية امس انك كنت من الفائزين في امتحانك، فاغتبطت وان كنت تنبأت بذلك من قبل، لا لأنك صديق يسرني ادخال السرور على قلبه فقط، ولكن لأن تلك الشهادة مرحلة أولى من مراحل حياتك الأدبية المنتجة. فهي ستدعوك الى أن تدأب على دراسة اللغة الفرنسية واستخراج كنوزها ونشر آياتها الرائعة بين أبناء شعبك الضائعين، وهي ستكون دافعًا يدفعك الى الاستزادة من مناهل الفن السامي الذي تطمح اليه نفسك المنتجة ومعينًا على تكوين ثقافتك كما تبتغي أن تكون. فاهنأ يا صديقي بهاته الشهادة وان كانت دون مداركك ومواهبك، وأضيق من أن تسع نفسك الكبيرة.

اليوم صباحًا جاءني الاخ زين العابدين السنوسي، وناولني مجلة «العالم الأدبي» التي خرجت أمس، فإذا بها قد انتقلت لطور آخر في جمال المظهر وحلاوة الشكل، وانني لأتوسَّم لها مستقبلا زاهرًا لخير هاته البلاد المسكينة.

وقد سألني عن عنوانك ليكاتبك اليه ويطارحك شكره وإعجابه بقوة نفسك ورزانة تفكيرك وعمق بحثك وتحليلك. والسلام عليك من أخيك المشتاق اليك المعجب بك.

أبي القاسم الشابي

الفصل الثّامن: من إخوانيات معروف الرصافي

هو معروف بن عبد الغني البغدادي (١٢٩٤ - ١٣٦٤هـ = ١٨٧٧ - ١٩٤٥م). شاعر العراق في عصره. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد ببغداد، ونشأ في الرصافة وتلقّى دروسه في المدرسة الرشدية العسكرية. واشتغل بالتعليم. فعين معلمًا للعربية في المدرسة الملكية. وانتخب نائبًا في مجلس «المبعوثان» العثماني. وانتقل بعد الحرب العالميّة الأولى (سنة ١٩١٨) إلى دمشق. ثم عين أستاذًا للأدب العربي في دار المعلمين بالقدس. وعاد إلى بغداد، فعُين نائبًا لرئيس لجنة «الترجمة والتعريب» ثم أصدر جريدة «الأمل». وعين مفتشًا في المعارف. من مؤلفاته «نفح الطيب في الخطابة والخطيب»، «ديوان الرصافة»، و«ديوان الأناشيد المدرسية»، و«آراء أبي العلاء».

* * *

نشر محمد مهدي الجواهري قصيدةً في صحيفة البلاد، فردّ عليه الرصافي بالكلمة التالية، وقد قدّم لها الجواهري الكلمة التالية:

أردنا - عندما ناغينا الشاعر العربيّ العظيم الأستاذ الرصافي أن يكون لنا شرف تذكره وهو في عزلته الموحشة، فكان لنا إلى جانب ذلك أيضًا شرف ابتعاث شاعريّته الفذّة التي حالت حوائل المرض والانعزال والنقمة

دون تمتّع المعجبين في شتّى الأقطار العربيّة بنتاجها.

أما وقد هززْنا الأسد الرابض الضائق ذرْعًا بعرينه، المنطوي على نفسه ألمًا وغضبًا وكبرياء، فليكنْ لنا شرف الاستماع إلى زئيره.

* * *

بكَ الشعرُ لا بي أَصْبحَ اليومَ زاهرا ... وقدْ كنتُ قبلَ اليومِ مثلُكَ شاعِرا
فأنْتَ الذي ألْقَتْ مقاليدَ أمْرِها ... إليـهِ القـوافـي شُـرَّدًا ونـوافِـرا
إذا قلتَ شِعْرًا قلتَهُ في بداعةٍ ... فكانَ بهِ المعنى بَديعًا وباهرا
وإن أنتَ أطلَقْتَ النفوسَ من الأسى ... بإنشادِهِ يومًا أسَرْتَ المشاعرا
بلَغْتَ من الإبداعِ أَرْفعَ ذرْوةٍ ... هوى النجمُ عنها صاغرًا مُتَقاصِرا
وإنَّكَ أرقى الناطقينَ تَكَلُّمًا ... بحَقٍّ وأنقى الساكتينَ ضمائِرا
إذا شِيءَ ظُلْمٌ قمتَ للظلمِ رادعًا ... وإن سِيءَ حقٌّ قمتَ للحقِّ ناصرا

* * *

لئِنْ كنتَ تَنْمَى للجواهر نسبَةً ... لقدْ كنتَ تحلو بالبيانِ جواهرا
نماكَ أبٌ بالعلمِ شَيَّدَ مَجْدَه ... وخلَّدَ مِنْهُ في الزمانِ المآثرا
وَمَدَّ مِنَ الآدابِ فيه سُرادقًا ... وأكْثَرَ فيه للبنينَ المفَاخِرا
فلا عَجَبٌ أنْ تَنْظُمَ الشِّعْرَ رائعًا ... أنيقَ المعاني زاهيَ اللفظ زاهرا
وقَدْ تُبْصِرُ الماءَ الزُّلالَ به القذى ... فَتُغْمِضُ عَنْه بالإباءِ النَّواظرا

ما أوحته إليّ قصيدتك:

ألا إنَّني رغم انتباهي لم أزَلْ ... بأكثرَ ما قدْ قلتَهُ أنتَ حائرا
تَحدَّثْتَ عن ماضٍ حديثًا مُجمْجَمًا ... كأنَّكَ فيه لم تكنْ لي عاذرا
وما كُنْتُ مختارًا كما أنتَ قائلٌ ... من العيشِ ما لولاهُ ما كنتُ شاعرا

ولا اخترتُ عيشًا بينَ بينَ مُوَسَّطًا ولا كنتُ فيما أَبْتَغيه مُشاوِرا
ولكنْ هي الأقدار تجري بغير ما يريدُ الفتى جَزْيًا على الأمر قاسرا
فَتَجْعَلُ ليثَ الغابِ يتلو فُرانقًا وتتركُ صَقرَ الجوِّ يخشى القنابرا
وكَمْ أَقْدرَتْ من كان في الناس عاجزًا كما أَعْجَزَتْ من كانَ في الناس قادرا
وما المرءُ إلّا مجبرٌ في حياته وإنْ ظنَّ فيها أنَّهُ كان خائرا[1]
وُلِدنا وعِشْنا ثمَّ مُتْنا وكلُّ ذا على غير إذْنٍ جاءَ بلْ جاءَ دامِرا
أجَلْ كنتُ من تَيْنِ الحياتين آخِذًا بواحدة تأبى القَسيمَ المُغايرا
وجادَلَني قومٌ بغيرِ دِرايةٍ ولستُ أبالي ذا العنادَ المكابرا
واسْأَلْ فأمنُنْ بالجوابِ تفضُّلًا سُؤالًا عن استعتابيَ الخِلَّ صادرا
أأَنْتَ الذي فضَّلْتَ عيشًا مُعَيَّنًا لِنَفسِكَ حتى كنتَ فيه المُشاوِرا
فصِرْتَ بهِ في القومِ شاعرَ مَجْدِهم إذا قلتَ شعرًا جئتَ بالشِّعْرِ ساحرا
إذا كان هذا هكذا منكَ واقعًا فقَدْ كنتَ في حسنِ اختيارك ماهرا
علامَ إذنْ تشكو وشكواك كلُّها كشكواي تُدمِي بالبكاءِ المحاجرا
ومن ذا الذي قد عاشَ في الناس راضيًا ومن ذا الذي قد عاش في الناس شاكرا
ولو كان عيشُ الناس وفْقَ اختيارِهم لما كنتَ تلقى شاكيًا أو مُخاطرا

* * *

لحَى الله دنيا كلُّنا من جرَائِها نخوضُ الرزايا راكبين الضرائرا
ونحنُ مدى الأيامِ نشكو بعيشِنا فسادَ نظامٍ يجعلُ الكَدَّ بائرا
نرى واحدًا يقتادُ ألفًا لعَيْشه وينظرُ للألفِ المسخَّرِ ساخرا
ولو وُزِنَتْ أعمالُهم باقتداره لكانَ بها كينونَةُ الصِّفرِ شاعرا

(١) خائرًا. مختارًا.

فما عاشَ في محياهُ عيشًا مُرَفَّهًا   منَ الناس إلّا من تَحَيَّلَ ماكرا
شقاءٌ على كرِّ الجديدين آخِذٌ   بأعناقِنا إلّا القليلَ المماكرا

* * *

وما الشِّعْرُ بالحبلِ الذي قد ذكَرْته   ولكنه بَرقٌ تموَّجَ دائرا
فما الشِّعْرُ إلا من بروقٍ دوائر   تدورُ أواليها لتلْقى الأواخرا
إذا لَمعَتْ فوق الطروس فإنَّها   تَردُّ إلى التبر المذاب المحابرا

* * *

إذن لم أكنْ في عالم الشعر مُرغمًا   لأوّله حتى يلاقيَ آخرا
نعمْ كنتُ في تلك الأماديح شاتمًا   زمانًا يوالي كلَّ من كان جائرا
وكنتُ بذاكَ المدحِ للمدحِ هاجيًا   وكنتُ بذاك الشِّعرِ للشعرِ حاقرا
إذا الدُّرُّ أَمْسى كالسَّخابِ مُحقَّرًا   شَدَدْتُ به للنابحاتِ سواجرا(١)
وما العارُ في هذا عليّ وإنَّما   على من أضاعوا مَجْدَهم والمفاخرا

* * *

ومن رسائله إلى مظهر الشاوي نثبت الرسالتين التاليتين:

أما الرسالة الأولى، فقد رُوي في مناسبتها أنّه لما بلغ مظهر بك الشاوي وهو معتقل في العمارة، أنّ الرصافي يعاني ضنك العيش، أرسل اليه مائة دينار، فكتب إليه الرصافي كتابًا يشكره فيه، وكانت فيه هذه القصيدة:

إلى مظهرِ الشاويِّ منّي تحيَّةٌ   كأخلاقِهِ فيها الثناءُ المعطّرُ
فتًى مَدَّ في أعلى المفاخر باعَهُ   فَأدْرَكَ ما إدراكُهُ مُتَعَذِّرُ

(١) السواجر جمع ساجور، وهو القلادة التي توضع في عنق الكلب.

لآبائهِ في السالفين مكارِمٌ   بألسنةِ الأمجادِ تُطْرَى وتُذْكَرُ
فمنهم لهُ مجدٌ تليدٌ مقدَّمٌ   ومنهُ لهم مجدٌ طريفٌ مؤخَّرُ
وَرُبَّتَما يَخْفَى على الناسِ فَضْلُهم   فَيُظْهِرُهُ كالشَّمْسِ للناسِ مُظْهِرُ
على مثلِهِ عدنان تَحْسَدُ حِمْيرًا   وما حسدتْ عدنانَ في الدهرِ حميَرُ
أمظهرُ قد أخرسْتني إذ شمَلْتَني   بعاطفةٍ قدْ ضاقَ عنها التصوُّرُ
على حينَ كان الناسُ شتَّى قلوبُهم   وَكُلٌّ لِكُلٍّ كارهٌ مُتَنَكِّرُ
فأطلقْتَ بالإحسانِ حرًّا مقيَّدًا   بهِ يترامَى جَدُّهُ المتعثِّرُ
فواللهِ لا أدري وإنِّي لحائِرٌ   بأيِّ لسانٍ ناطقٍ لكَ أشكرُ

* * *

سجاياكَ فيها من مزاياكَ مَنْظَرٌ   يُصَدِّقُهُ من حسنِ مسعاكَ مخبرُ
انِ اعْتقلوكَ اليومَ أن كُنتَ مُخلِصًا   فإنَّ اعتقالَ المخلصِ الحُرِّ منكَرُ
وما في اعتقالِ الحرِّ للحُرِّ وَصْمَةٌ   ولكنَّهُ فَخْرٌ بهِ الحُرُّ يَفْخَرُ
وسوفَ يدورُ الدهرُ دورَتَهُ التي   بها ظُلمُهُمْ يُطْوَى وذكرُكَ يُنْشَرُ

* * *

سأشْكُرُك الشُّكْرَ الذي أنتَ أَهْلُهُ   وإنْ كانَ شُكري عن نوالِكَ يَقْصُرُ
وَأَجْعَلُ قُرْصَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلوعها   علامَةَ شُكْرٍ كلَّ يومٍ يُكَرَّرُ
إذا ذَرَّ قرنُ الشَّمْسِ كُلَّ صبيحَةٍ   تلا قرنَها شَكْرٌ كوجهك مُزْهِرُ

الأعظمية ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٤

معروف الرصافي

* * *

والرسالة الثانية التي أرسلها الرصافي إلى الشاوي كانت على أثر تلّقيه هدية صاحبه وهي كسوة عربيّة كاملة، وهي بتاريخ ١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤، وهذا نصها:

إلى غرة آل الشاوي(١)

إليكَ يا مظهر الشاوي مغلغلةً ... فيها الثناءُ لكمْ كالدُّر في الصَّدفِ
تأتيكَ تَحمِلُ إجلالًا وتكرمَةً ... من شاعرٍ شاكرٍ بالصِّدْقِ مُتَّصِفِ
ما إنْ تَفَوَّهَ عن كذْبٍ ولا ملقٍ ... ولا تمدَّحَ عن عُجْبٍ ولا صلفِ
يا خيرَ ذي نَسَبٍ بالنبلِ مُعْتَجرٍ ... بالمجدِ مؤتزرٍ بالفَخْرِ ملتحِفِ
أهديتَ لي حلّةً غيظَ الحسودُ بها ... لأَنها تحفةٌ منْ أنْفَسِ التُّحَفِ
فرحتُ أَرْفلُ فيها وهي ضافيةٌ ... وأنْتَ تَرْفلُ في الضافي منَ الشَّرفِ
وصارَ عيشي بما أَوْلَيْتَني رَغَدًا ... وكانَ من قبلُ رهنَ البؤسِ والشَّظَفِ
يا ابنَ الذين أقاموا في مواطنهم ... لِلْمَجْدِ صَرْحًا منيفًا عاليَ الشرفِ
قَدْ خَلَّفوكَ لعالي مجدهم خَلَفًا ... للهِ دَرُّكَ ما أعلاكَ مِنْ خَلَفِ!

أيها الشهم العربي الجليل:

قبل أسبوع تسلَّمتُ عطاءكم الجزيل من يد الملازم يوسف عبدالوهاب، واليوم تسلَّمتُ هديتكم النفيسة من يد عبد الكريم كنه. وهي كما قلتم في كتابكم السابق (كسوة كاملة). ولا حاجة الى بيانها

(١) عاد الرصافي فأرسل هذه القصيدة مرة أخرى الى الشاوي بتاريخ ١٩٤٤/١١/٤ مع المقدمة الآتية «أرسل مظهر الشاوي الى الرصافي كسوة كاملة بجميع متمماتها حتى المناديل، فأرسل اليه الرصافي هذه الابيات» ويبدو انه أرسلها طي رسالته الرابعة المؤرخة في ١٩٤٤/١١/١٢ كما أشار في آخر تلك الرسالة

بالتفصيل، لكثرة ما فيها مما يزيد على الحاجة أضعافًا، فأسأل الله أن يكسوكم حلل الصحة والعافية كما كساكم حلل المجد والشرف.

الأعظمية ١ تشرين الثاني ١٩٤٤ م.

معروف الرصافي

الفصل التّاسع: من إخوانيات مي زيادة

هي ماري بنت إلياس زيادة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م - ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) أديبة كاتبة نابغة. أتقنت إلى العربية الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية. وكتبت في الجرائد والمجلات. حوّلت بيتها إلى منتدى أدبيّ. من مؤلّفاتها «باحثة البادية»، و«سوانح فتاة»، و«الصحائف»، و«كلمات وإشارات».

* * *

من مي إلى جبران

تقدير ومشاركة... واختلاف

... إننا لا نتفقُ في موضوع الزّواج يا جبران. أنا أحترمُ أفكارَك. وأُجِلُّ[1] مبادِئَك، لأَنني أعْرِفُك صادقًا في تعزيزها، مُخلِصًا في الدفاع عنها، وكلّها ترمي إلى مقاصِدَ شريفةٍ، وأشاركَك أيضًا في المبدإ الأساسيّ القائل بحريّة المرأة. فكالرجل يجبُ أن تكون المرأةُ مُطْلَقَةَ الحريّةِ بانتخاب زوجها من بين الشبّانِ، تابعةً في ذلك ميولها وإلهاماتِها[2] الشخصيةَ، لا

(١) أجل: أقدر.

(٢) إلهاماتها: ما توحي به نفسها

مكيَّفةً حياتَها في القالَب الذي اختارَهُ لها الجيرانُ والمعارِفُ، حتى إذا ما انتَخَبَت شريكًا لها، تَقيَّدت بواجبات تلك الشَّرِكَةِ العُمْرانيَّة تَقيُّدًا تامًّا. أنت تُسمّي هذه سلاسِلَ ثقيلَةً، حَبَكَتها[١] الأَجيالُ، وأنا أقول إنّها سلاسِلُ ثقيلةٌ، نعم، ولكن حَبَكَتْها الطبيعةُ التي جعلتِ المرأةَ ما هي. فان تَوَصَّلَ الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يَتَوَصَّل إلى كسر القيود الطبيعيةِ، لأن أحْكامَ الطبيعةِ فوقَ كُلِّ شيء. لِمَ لا تستطيعُ المرأةُ الاجتماعَ بحبيبها على غير علمٍ من زوجها؟ لأنّها باجتماعها هذا السِرّيِّ، مهما كان طاهِرًا، تَخونُ زوجَها وتخونُ الاسمَ الذي قَبِلَتْهُ بملءِ إرادتها، وتخونُ الهيئَةَ الاجتماعيَّةَ التي هي عُضْوٌ عامِلٌ فيها.

أمانة زوجية

عند الزواج، تَعِدُ المرأة بالأمانَة، والأمانَةُ المعنويَّةُ تُضاهي[٢] الأمانَةَ الجسديَّةَ أهَمّيَّةً وشأنًا. عندَ الزواج، تتكفّل المرأةُ بإسعاد زوجها، وعندما تجتمع سرًّا برجل آخر، تُعَدُّ مُذْنِبَةً إزاءَ[٣] المُجتمعِ والعائلة والواجِب. رُبّما اعتَرَضْتَ على هذا بقولك: إنَّ الواجب كلمَةٌ مُبْهَمَةٌ[٤] يَعْسُرُ تحديدُها في أحوال كثيرةٍ، فليس لنا إلا أن نَعْلَم «ما هي العائلةُ»، لِنَجِدَ الواجباتِ التي يَفْرِضها على أفرادها. ودَوْرُ المرأةِ العائليِّ هو أصعبُ الأدوارِ وأوْضَعُها[٥] وأمَرُّها.

---

(١) حبكتها: شدتها وأوثقتها.

(٢) تضاهي. . : تشابهها وتزيد عليها.

(٣) إزاء: مقابل، أمام.

(٤) مبهمة. غير واضحة.

(٥) أوصعها: أحقرها وأقلها شأنًا.

إنني أشعُرُ شعورًا شديدًا بالقيود المُقَيِّدَة بها المرأةُ، تلك القيودُ الحريريّةُ الدقيقَةُ كنسيج العنكبوتِ، المتينَةُ متانَةَ أسلاك الذهب. ولكن إذا جَوّزنا لسلمى «سلمى كرامة بطلة الرواية» ولِكُلٍّ واحدةٍ تُماثِلُ[1] سلمى عواطفَ وسُمُوًّا وذَكاءً، الاجتماعَ بصديق شريفِ النفس عزيزها، فهل يَصُحُّ لكل امرأةٍ لم تجد في الزَّواجِ السعادَةَ التي حَلَمَتْ بها[2] وهي فتاةٌ، أن تختارَ لها صديقاً غيرَ زوجها، وأنْ تجتَمِعَ بذلك على غير مَعْرِفَةٍ من هذا، حتى وإن كان القصْدُ من اجتماعهما الصلاةَ عندَ فتى الأجيالِ المصلوبِ[3].

مي . . .

(١) تماثل: تشبه

(٢) حلمت بها: تمنتها، أملت بها.

(٣) المصلوب: المسيح

الفصل العاشر: من إخوانيات مارون عبود

أديب لبناني نقّادة عنيف كثير التصانيف، من أعضاء المجمع العلميّ العربيّ بدمشق (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م - ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م). مولده ووفاته في قرية عين كفاع بلبنان. عمل في التدريس والصحافة. أصدر نحو ٥٠ كتابًا تُرجم بعضها إلى اللغات الأوروبيّة، ومنها «جدد وقدماء»، و«مجدّدون ومجترّون»، و«سبل ومناهج»، و«على المحكّ». وقد صدرت مؤلفاته كاملةً في ثلاثة عشر مجلّدًا.

* * *

سيدي الاستاذ الكبير[١]:

تلقيت كتابكم الكريم وتمنيت لكم توفيقًا في مهمتكم التي انتدبتم لها مقرونًا بطيب الاقامة في وادي النيل.

كم نكون مغتبطين بزيارتكم بيروت لنتشرف بمقابلتكم، وزيارتكم التي تتهلل الجامعة الوطنية بها، فأهلاً وسهلاً بالأستاذ الجليل. وعسى أن تشعرونا قبل ترككم القاهرة الى بيروت.

سيدي:

انني أنتظر رأيكم السديد الذي احتفظتم به، وكذلك رسمكم الكريم

(١) المستشرق جب.

الذي وعدتم بإرساله. أما ما كتبته جديدًا، فلم أرسله الى لندن لأنني قرأت في الصحف خبر مجيئكم القاهرة، ولم أرسله الى القاهرة خوفًا من أن يفقد، فهو محفوظ عندي لأرسله اليكم بعد عودتكم الى لندن او عندما تشرّفون هذه الديار.

وختامًا تفضلوا بقبول فائق تحياتي وتمنياتي لكم.

عاليه ١٥/ ١٠/ ١٩٣٩

* * *

جواب المستشرق جب

سيدي الأستاذ المحترم:

أعترف بتقصيري في حقكم وأتسرع إلى تداركه، ولا عذر لي إلا أن شتى المشاغل قد حالت دون متابعة دراساتي في الأدب العربي الحديث مع شدة اهتمامي به، حتى عضوية المجمع اللغوي لأن غيبتي السنوية في مصر والقيام بأعماله يضطرني إلى مضاعفة ما عليّ من الأعمال المدرسية في لندن وكذلك منعني من الزيارة المنشودة إلى لبنان.

ولقد تسلمت، ولكم مزيد الشكر، مقالكم الأخير في الأدب العربي في البرازيل وقرأته بكل اهتمام لا سيما وليس لي معرفة شخصية بالأدباء هناك وبمنتجاتهم. وقد شوّقني ما كتبتم فيهم الى الحصول على بعض منها، وسأحاول ذلك لأدرسها في الوقت القريب.

إلا أنه لا يمكنني أن أوافقكم فيما قلتم عن الأستاذ كراتشكوسكي، فإنه باحث جليل القدر في الأدب القديم والأدب الحديث قد تفرّغ له من

ثلاثين سنة، وعندما ابتدأت بدراسة الأدب الحديث، اتصلت به كتابة وانتفعت كثيرًا برسالاته ومقالاته وإرشاداته، ومما يجوز أن يقرّبه لكم أنه تخصص بدرس الأدب اللبناني، وأراه شيخنا بهذه الساحة.

وختامًا أرجوكم قبول هذا الرسم مني مع تحياتي واحتراماتي.

في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م.

جب

* * *

أخي عبد الله[١]:

قال شاعرنا بشار:

تعطي الغزيرَةُ درَّها وإذا أبت ... كانت ملامتها على الحلَّابِ

لقد أجدت، وأحسنت، فوفقت، وبحسب نيّاتكم ترزقون.

نيّتك الحسنة وفّقت سعيك المشكور، وان أجرك عند ربك لعظيم.

فهنيئًا لك وللوطن ببناء خليتك الاجتماعية، وسوف تقترن باسم عبدالله المشنوق، ما دام في الدنيا دين وعلم وطب وعمل.

ألهمك ربك فأقدمت على هذا العمل الجبار، فبنيت الخلية العظمى، وكنت يعسوب الدين والدنيا.

اني أهنئك من صميم قلبي، وليت للأمة أفرادًا مثلك ينهضون بها إلى أعلى ذرى المدنية المثلى والسلام.

(١) الأديب الاستاذ عبد الله المشنوق.

حاشية: لقد بنيت الخلية العظمى فأرجو أن لا تنسى (النخروب) الذي تزجّ فيه ابن أخيك... فالضرورة قصوى.

عاليه ١٧/٤/١٩٥٣ م.

أخي شكيب[١]:

وصلتني مجلتكم (أصداء) فقرأتها ولم أخرم منها حرفًا. أعجبت بما فيها، وكان إعجابي بمقاصدها وعزمها أشد، حقق الله الآمال.

هذا نبأ مهم، أما النبأ الأهم فهو ما قرأته في الصحف عن ترككم كرسي السِّياسة القلق لتقعدوا على طنفسة الأدب الناعمة. مرحى للأدب ينصرف اليه من كانوا أدباء «من البابوج إلى الطربوش».

قد تستغرب إعراضي عن التهنئة بالوظيفة والتفاني إلى ما صرت اليه. لا تتعجب، فقد تعودت - وبذا عُرفت - ألا أُقبل على تلاميذي وأصدقائي، اذا تسلقوا جبال الحكم، أو تزحلقوا على ثلوجها، طامحين إلى الفوز بكأس البطولة.

لا تقلْ لي، انك تدوس كبرياء أرسطو بكبرياء أعظم منها. لا يا أخي، ولكنني أكره الحوم حول الكراسي، ولا أنظر إلى القيم الشخصية بمنظار غيري. وما أدراك، فقد يكون ولِّد فيَّ هذا الاشمئزاز غرور بعض الأصدقاء، المبتلين بداء الكرسي، فاحمد الذي شفاك منه.

لقد ذقنا ثمارك الشهيّة في (نهم) و(قدر يلهو) فعسى أن تحمل الينا (أصداء) كل طريف زكي.

---

(١) الدكتور شكيب الحابري

انني أتمنى لها المرور في أطوار العمر حاشا السرار منها.

أتمنى أحر التمني أن تنجو (أصداء) من الأدب الخروبي - درهم دبس على قنطار حطب - وان تسلم من داء الاجترار، تعبيرًا وتفكيرًا، فالاجترار طاعون الأدب العربي.

سلمك الله، وأخذ بيدك، وسلمت لمن لا ينساك.

عاليه ١٥/١/١٩٤٥ م.

أخي الدكتور فارس الحايك - بعلبك:

يا عشير الصبا ورفيق الشباب!

ذكّرتني، وما أنا بناس، بكل ما أثارته رسالتك من شؤون وشجون بلدية.

كان في البلاد رجال يجيئون على الصوت، أيام الطربوش المغربي، واللبادة والكبران والمداس، أما اليوم فقد ذهبت الألبسة الناعمة بتلك الرجولة، ولم يبق منها إلا الطلول الدوارس وعليها يجب أن نبكي.

بلادنا جميلة، ولكن حظها قليل.

بلادنا مخلصة ولكنها محبة غير محبوبة...

يغمزونها فتلبي، أما هي فتدعو، بل وتستغيث، وما من مجيب.

بقعتنا تعيش في الظلام، وهي مقطوعة عن العالم كأنها ليست من الجمهورية.

لا يشعر الآخرون بوجودها إلا حين يريدون إثبات وجودهم...

تقول لي، يا أخي: «وما أحلاك حين تكلمت بلغة بلادنا: قرأت حبر على ورق في المجالس، يا ترى الطينة ما بدها تعلق ولا مرّة؟ رجاع تا نرجع عا بلادنا نترنم بدقّ المجوز، ونقعد حد مواقدنا بالشتي عَ ضَوّ سراج زيت الحلو، وبالصيف بعرزالنا المعمول من ورق غار وادي الهامي، ونقضي ما تبقى من العمر مثل ما عملوا جدودنا، ونشرب من مياه بياتنا، واللي قاعدين عَ ضَوّ الليل مثل النهار، والمي تتدفق بدورهم وحمّاماتهم - وتلفونهم حد مخدتهم - ما هم أحسن منا، شفناهم وشفنا أعمالهم».

ذكّرتني دعوتك إياي للرجوع بالخوري يوحنا طنوس حين جاء للسلام على أحد المطارين، وكان هذا المطران قد اختل عقله قليلاً يومًا ثم شفي، فقال له ذلك الأسقف: «أنت الخوري حنا طنوس؟ بعدك مشتول؟ فأجابه الخوري حنا: أنا جايي تَ إسألك يا سيدنا؟

فيا أخي الدكتور الحبيب، أنا ما زلت في عين كفاع أعيش كما ذكرت، فليتك أنت تفعل كما قلت ونراك بيننا في هذا الصيف. ان بلادنا تركتها رجالها.

يهجرونها شبابًا ليعودوا اليها على الأعواد أمواتًا يستريحون في ترابها الطاهر كرفيقنا وحبيبنا الدكتو فرحات الذي أوحى إليك مأتمه هذه الرسالة النفيسة.

اننا نحتاج إلى مطالبة جدية إذا أردنا لبقعتنا عمرانًا، أما الحبر على الورق فمثله معروف مشهور...

الى اللقاء في وادي الهامي، أو دير القطين. لا بل في «مار عبدا»

حيث اختبأ مدة المطران يوسف اسطفان، سكرتير عامية انطلياس، ثم مات شهيد قهوة المير...

عين كفاع

عزيزي ع.م. - فالوغا!

وصلتني رسالتك متأخرة، ولأحكام لا ترد تأخرت أنا أيضًا. أرجو المعذرة.

قلت في مكتوبك إنني انتقدت رواية «الحب أقوى» للأستاذ رئيف خوري من ناحية اللغة فقط، ولهذا أسألك اعادة النظر في المقال الأول.

أما قولك: «والقسم الآخر من الأغلاط ليس من الأهمية بحيث يحتاج الى مثل هذا الهجوم»، فلا أوافقك عليه.

ان الخطأ خطأ، وعلى الناقد أن يدل عليه، لأن فيه ما ينفع الأديب والناس.

أما رأيي في القصة وكاتبها فقد أبديته في ذاك المقال أيضًا. وها أنا أعيد القول بناء على طلبك: «ان الأستاذ رئيف خوري أغزر أدباء اليوم إنتاجًا، وفيه يصح قول زهير في الحرب:

«يغلُّ لنا» ما لا تَغِلُّ لأهلها قرى بالعراق من قَفيزٍ ودِرْهمِ

وانتاجه هذا يقرأ بلذة لأن كاتبه ذو شخصية ذات علامات فارقة، ولآثاره «ماركة مسجلة» يعرفها بها اللبيب، وهي تلك التعابير التي يرسلها رئيف عفو الطبع، فتجيء طريفة ظريفة.

أنا أحب رئيف خوري، ولكن هذا الحب ليس يحول دون نقده، وما

أحسب ما دللت عليه من خطأ عند رئيف، إلا خطأ نراه عند كتّاب الوقت القارحين. ولا أحسب الأستاذ معوّلًا على هؤلاء. ظنّهم «ثقات» فوقع في ما وقعوا فيه.

ان الأستاذ رئيف خوري هو «الأمل المنشود» كما قال شاعرنا الكبير الأخطل الصغير، ومعاذ الله أن يضيع من يدي...

فانعم يا عزيزي عبد الكريم بالًا، ان أديبك المفضل رئيف خوري يبدو على محك الفن من عيار عشرين وما فوق، وسيصير عيار ٢٤ اذا تأنى ولم يلبّ كل صوت. وما تلك «الأغلاط» إلا زنجار أزاله المحك عن الذهب، فأعاد إليه رونقه وسناءه.

عين كفاع ١٥/٩/١٩٥١ م.

عزيزي الأستاذ بطرس بواري:

لا أستطيع أن أقول لك كما قلت لي: «إعجابي وتقديري لك كبيران» لأني لا أعرفك، وإن كان «البواريون» أبناء عم لنا يصح فينا وفيهم قول عمر لهند: «إنما نحن وهم شيء أحد».

اعذرني إذن إن شككت بوجودك، لأني أخاف أن أكون في هذه المناقشة مثل دون كيشوت وسانشو بانسا.

أشكرك أولًا، وإن كنت أبغض هذا البحث العقيم، وخصوصًا متى كان على حد قول بشار: «كالروم تغزو وتؤخذ الخزر»، تُخطىء المطبعة وأُطالب أنا...

أما أضعت وقتك في انتقاد كلمة «وفير» وهي من هفوات الطبع

وصوابها: «يوشح الواقع ببرفير خياله المجنح».

ثانيًا - وأنا أكره جدًا أولًا وثانيًا وثالثًا - «اللها تفتح اللهى»، هي كما قلت، والكلمة مقولة قديمًا، وأظنني أحسن كتابتها على حقها، فهي إما من كبائر المطبعة، وإما من خطايا ناموسي...

ثالثًا - تسألني عن فعل نخر وتقول: والفعل بكسر الخاء لازم، ولم تنص كتب اللغة على أية تعديل له.

لقد ذكرت الكسر، يا أخي، ونسيت الفتح... فقد عدَّت العرب نخر المفتوح الخاء وقالوا: نخر الناقة... الخ. فكما عرفوا هم كيف يستدرون الناقة بنخرها، كذلك يحق لنا نحن أن نفعل، بعدما عرفنا ما يَنْخُرُ العظم وغيره..

أما قولك: «وأظن أنه لو جازت هذه التعدية لأدخله من عرَّب التوراة، ومنهم الشيخ إبراهيم اليازجي».

أنت تجهل، يا صاحبي، أن هذه الآية محذوفة من «توراة البروتستان». ولو عرفت لما قلت: «ومنهم الشيخ إبراهيم».

وبعد، فكيف يأتي الشيخ إبراهيم بفعل غير موجود في الأصل فترجمة التوراة حرفية. ثم من قال لك أن الشيخ إبراهيم مضى لسبيله ورد الباب خلفه؟

أما كلمة «احتار»، فقد كثر سائلي عنها حتى أجبت أحدهم «جهاد» في مجلة الأحد، وأن صدق الظن، فأنت «جهاد» الأمس، و«بطرس بواري» اليوم، ذلك السائل المتكتم. فقد ملأت خياشيمي رائحة أسلوبك.

وأخيرًا، كلمة القُسُسُ التي زعمت أن جمعها ممنوع لأن مفردها قس بفتح فسكون، وهذا لا يجمع على فُعُل بضمتين.

لا، يا أستاذ، ان لفظة قس مثلثة القاف، وهي سريانية معربة، أصلها قشو، وقشيشو، ومعناها الشيخ والقديم. والشيخ فاضل عندهم، والقديم مقدس دائمًا. ولذلك جاء في المعجم الذي اعتمدت عليه القسس الفضلاء. فليتك شعرت بأن قوله «الفضلاء» يدل على أنها جمع! أليس كذلك؟

وأما اعتذارك أخيرًا عن النقد بقولك: «ان كل ما قصدت ليس إلا محض استيضاح دون أن يكون له ثمة أي نقد» (كذا).

فالجواب عليه أنك لم تنتقد رجلاً معصومًا، وأنا أُرحب بالنقد ترحيبي بصديق عزيز. وأرجو منك ألا «تشفق أن ينشب بيني وبين الأستاذين مبارك إبراهيم والعوضي الوكيل نقد لغوي».

لكل خطاب يا بثين جواب. وما إخالك رأيت مني غير ذلك.

١٩٥٣/٨/٣١ م.

الفصل الحادي عشر: من إخوانيات طه حسين

هو طه بن حسين بن علي بن سلامة (١٣٠٧-١٣٩٣هـ. = ١٨٨٩-١٩٧٣م.) من كبار المحاضرين، جَدَّد مناهج، وأحدث ضجَّة في عالم الأدب العربي. ولد في قرية «الكيلو» بالصعيد المصري، وأصيب بالجدري فكُفَّ بصره. وبدأ حياته بالأزهر، ثم بالجامعة المصرية القديمة، وهو أول من نال الدكتوراه منها بكتاب «ذكرى أبي العلاء»؛ وسافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون. من مؤلفاته «في الأدب الجاهلي»، و «على هامش السيرة»، و «مع أبي العلاء في سجنه»، و «مع المتنبي».

* * *

من طه حسين إلى صلاح لبكي:

سيّدي الأستاذ الكريم:

وصل إليّ كتابك والمنهاج المرفق به من مدينة فلورنسا حيث كنت أشهد مؤتمر السلام والحضارة المسيحية. وهذا السفر الذي سيضطرني إلى الغيبة عن مصر ثلاثة أشهر يمنعني بالطبع من أن أنهض بالمهمّة التي تفضّلت فوكلتها إليّ، على أن أكون صلة بينك وبين الزملاء المصريين لمعرفة الأدباء الذين يرغبون في أن يشتركوا في اجتماع «أهل القلم» على

نفقتهم الخاصّة.

ولم يكن أحبّ إليّ من أن أنهض بهذه المهمّة لولا أنّ كتابك قد وصل إليّ متأخّرًا. ولقد اتصلت بالأستاذ رئيف أبي اللمع لأسأله عن أمر هذا الاجتماع، فلم ينبئني بشيء لأنّه لم يكن يعرف شيئًا. والخير كلّ الخير هو أن تكل هذه المهمة إلى أحد الزملاء المصريين الموجودين الآن في القاهرة. وربّما كان الأستاذ توفيق الحكيم أقدرهم على ذلك لأنّه متّصل بكثير من شباب الكتّاب.

أمّا المنهاج فليس لي عليه ملاحظة، وأراه ملائمًا كلّ الملاءمة لأوّل اجتماع يشهده أدباء البلاد العربية.

ولكنّي أرى أنّ الموضوع الذي تفضّلتم فاخترتموه لي قد لا يكون ملائمًا للاجتماع الأوّل، لأنّه قد يغضب غير واحد من الأدباء. فقد أضطر إلى أن أقول إنّ فنوننا الأدبية الحديثة كلّها ما زالت في طور الطفولة بالقياس إلى الآداب العالمية، ولا سيّما في العالم القديم الأوروبي: فالقصّة عندنا ما زالت ناشئة وعيوبها أكثر من مزاياها، والتمثيل أدنى إلى الطفولة القاصرة من القصّة. والشعر يعاني أزمة في كثير من الأقطار العربية، وهلمّ جرًّا كما يقال.

ورأيي أنّ الاجتماع الأوّل لهذه الهيئة يجب أن يكون مشجّعًا للأدباء، مُرَغِّبًا لهم في عقد اجتماعات أخرى، وفي دعوة زملائهم إلى المشاركة فيها.

وربما كان موضوع تبعات الأديب وحقوقه في العصر الحديث وفي العالم العربي خاصة أحقّ بالعناية وأجدر أن يرضي الأدباء ويشجّعهم من

الموضوع الذي اقترحتموه. وأنا على كلّ حال صائر إلى ما تحبّون، ومستعدّ لأن أتحدّث في أيّ الموضوعين شئتم. فإذا تفضّلت فاكتب إليّ برأيك ورأي الزملاء في هذا. ولك ولهم أصدق تحياتي وأخلص أمانيّ.

* * *

الفصل الثّاني عشر: من إخوانيّات توفيق الحكيم

هو أديب مصري. ولد عام ١٩٠٢. تلقى علومه الأولى في مصر. ثم أكمل دراسته الجامعية في فرنسة. فدرس فيها الحقوق. وكان به ميل الى المسرح والتأليف المسرحي. عمل في القضاء، ولكن رغبة عميقة للعمل في الأدب كانت تستبدّ به، فانصرف عن القضاء الى الأدب. فكتب عددًا من المسرحيات التي جاءت على درجة من الروعة الفنية والإتقان. فنقلت مؤلفاته الى اللغات الأجنبية المختلفة. من آثاره: «أهل الكهف»، و «عودة الروح»، و «أشواك السلام».

* * *

عزيزي...

وا أسفاه!... مضى عامٌ وأنا لم أزلْ في انتظار رَدٍّ منك. ردٌّ صغيرٍ يُنْبِئُني بأنَّ الحبل بيننا لم يَنقطع!.. يظهَرُ أنّهُ انقطع... ذلك الحبلُ الذي كان يربُطُ أحدنا إلى الآخر، ونحن هائمان في جليد ذلك القُطْبِ «الفكريّ» المُرْتَفِع!...

إني أكتُبُ إليك الآن، من مدينة صغيرة على النيل!... تُدعى «دسوق» هي مع ذلك مركزٌ من أهم مراكز القُطْرِ. لقد أسندوا إليَّ أعمالَ

نيابَتِها، فوجدتُ نفسي أمام عَمل هالني[١] من الكثرة والخُطورَة. . . إنَّ قاضي المحكمةِ لا يُقيمُ في المدينة. فهو يَحْضُرُ جَلْسَتَيْه ويذهبُ، وبهذا صِرتُ أنا الرئيسَ المسؤولَ عن شُؤون النّيابةِ والمحكمةِ معًا. . . لقد تبيّن لي بعدَ أسابيعَ أنّي أنا الرئيسُ المُتَصَرِّفُ في هذه المدينة كلّها. فالبوليسُ والإدارةُ والصحّةُ والهندسةُ والري والزِّراعَةُ، وكلُّ فروع الحكومَةِ المُخْتَلَطَةِ تَصُبُّ مشاكِلُها بين يَدَيَّ!. . . حتى فيما لا يقعُ تحتَ طائلَة القانونِ، وما يُكْتَفى فيه بالنّصْح والإرشاد، والمُصالَحَة والتوفيق، وإقرار النظامِ بالحُسنى. . .

كلُّ ذلك يحتاجُ إلى رأيي، ولكَلمتي فيه المَقامُ الأوّلُ. . . لقد شعرتُ حقًا بعبءِ المسؤوليّة. . فدفعني ذلك إلى العمل المُضْني[٢].

لقد وضعتُ نظامًا دقيقًا للعمل لا أنْحَرِفُ عنه قيْد شَعْرَةٍ. إني أعملُ نهاري كلّهُ، من الصباح حتى الثانية بعدَ الظهرِ، ومن الرابعةِ حتى السابِعَةِ، فَأَخْرُجُ للنّزْهَةِ ساعةً فوقَ جِسر النيلِ. . . تلك هي الساعَةُ التي تسمَحُ لي فيها تَبِعاتي[٣] أن أتَحَرَّرَ قليلاً لأعودَ إلى نفسي وذِكرياتي. في تلك الساعة الهادئَةِ، أسيرُ وَحدي فوقَ الجِسر، أتأمّلُ الأمواجَ في اصطفاقها الخافت[٤]. . . فتلعبُ في رأسي الأفكارُ القديمةُ من جديد، أفكارُ الفنِّ والأدبِ، فَألْتَفِتُ حولي حِرْصًا عليها من مُفاجىء، فلا أُبْصِر غيرَ الخفيرِ[٥]

(١) هالني: أفزَعني.
(٢) المضني: المتعب
(٣) تبعاتي: مسؤوليّاتي.
(٤) الخافت: الضعيف.
(٥) الخفير: الحارس.

النّظاميّ يحملُ بندقيته ويَتْبَعُني عن بُعد، لِيُبْلِغني ما يَرِدُ من إشاراتٍ مُسْتَعْجلَةٍ حتى إذا خَيّمَ الظلام، عُدتُ إلى مَسْكَني فتناولتُ العَشاء، ثم نظرتُ في بعض مَلَفّات القضايا، ثم أَوَيْتُ إلى فراشي في انتظار إزعاجي نِصْفَ الليلِ، بِبلاغ عن وُقوع جِنايَةٍ! . .

لقد أَحْصَيْتُ عدَدَ الليالي التي أنْتَقِلُ فيها إلى حوادِثَ جِنائيّة في المَرْكَز . . . فاذا هي في المُتَوَسّط خمسُ ليالٍ. أي أنّي لا أَظْفَرُ بِأكْثَرَ من ليلتين في الأسبوع أقضيهما نائمًا في فراشي كما يَنامُ الآدميّون. إنّي أؤدي واجبي دون تَذَمُّر، وأنهضُ بأعْباء عملي القَضائِيّ بأمانَة وَهِمّة واسْتِقَامَة، أَلْحَظُ أثَرَها الحَسَن في مُكاتَبات الرّؤَساءِ الرسمِيّةِ . . . إنّهم يَثِقونَ في تصرُّفاتي ثِقَةً تَمْلأُني فَخرًا. هل كنتَ يا صديقي، تتوقّعُ نَجاحي كوكيل نيابة؟ . . ولا أنا . . . ما كنتُ أتَوَقّعُ لنفسيَ ذلك! . .

لقد ثَبَتَ لي أنّي رجلٌ أمينٌ، لا يَعرِفُ الغِشَّ في شُروط اللّعِب! إنّي في الفنِّ كنتُ الفَوضى بعينِها، ولكنّي في عملِ القضاءِ أنا النّظامُ بعينه، بل إنّي - مبالَغَةً في الغَيْرَة على سُمْعَةِ هذا المَنْصِبِ - لا أَخْتَلِطُ بالأعيان، ولا برجال الإدارةِ، ولا بأيِّ شخصٍ، أكثرَ من الاختلاط الذي يدعو إليه العملُ الرسْميُّ.

لطالما سمعتُ بأخبار زملاء قَضائِيّين - لم يَتّصلوا يومًا بفنّ ولا بفنّانين - ومع ذلك لم يُبالوا، فكانت لَهُم في مراكز أعمالهم سهراتٌ «بوهيمية»[(١)] ومغامراتٌ . . . تركتْ أثرًا في صحائف خِدْمَتهِمْ لا يُمحى، أمّا أنا فَصحيفَتي نَقيّةٌ بيضاءُ.

---

(١) السهرات الوهيميّة: السهرات التي يسعى فيها الإنسان وراء ملذّاته.

ولقدِ التَقَيتُ ذاتَ مَرَّة بالنائب العام، فقال لي: إنّه يَعُدُّني من خيْرَةِ وُكَلائِه عملاً واسْتِقامةً وسمْعَةً.

ماذا بقيَ لي من الفن، ومن الفنّان بقُبّعتِه السوداءِ، ذاتِ الإطارِ العريضِ؟ كنتُ منذُ أشهُرٍ بالقاهرة، فقابلني أحَدُ زملاءِ الدّراسةِ، يشتغلُ الآن بالتّجارةِ، ولا يَعرِفُ من أمري شيئًا. فما إن تَفَرَّس[1] في وَجهي وهَيْئَتي، حتى قال لي: «ماذا تعمل في الحياة؟ لا بُدَّ أنّك من رجال القضاءِ؟!» فدُهِشتُ وسألتُهُ: كيف عرفتَ؟ فقال لي: «شكلُك وهيئتُك وسيماؤك»[2]. عَجَبًا!... أهكذا المِهْنَةُ قد طَبَعَتْني بِطابعها... ورنَّ عندئذٍ في أُذُني صوتُ «إيما» يومَ قابَلَتْني أوّلَ مرَّةٍ وتَفَرَّسَتْ في وجهي قائلةً لي: «ماذا تعملُ؟ لا بُدَّ أنّك فنّانٌ في مونمارتر!...» وا أسفاه!... ماتَ ذلك الفنّانُ... وحلّتْ روحُه في جَسد رجلِ قانون!...

كيف السبيلُ إلى الفنِّ الآنَ، والمجتمعُ، كما ترى، قد هَيّأ لي مكانًا في أحْضانِه لا أستطيعُ منه فَكاكًا[3]؟ أخْشى أن يُحَطّمَني المجتمع. يُحَطّمَ الفنّانَ فيَّ. ربما كان قد حَطّمني وكَسَرني. ولكنّي أُقاوِمُ... أأَرضى أن تَطْوِيَني الحياةُ، وتُرْغِمَني على ما لا أُريد؟

فيمَ كان إذَنْ جِهادي الطويلُ في سبيل الفن؟ فيمَ كانت الأعوامُ الطّوالُ التي أنفقتُها قِراءَةً واطّلاعًا وتحصيلاً وتكوينًا وممارَسَةً لألوان الفنِّ

(١) تفرّس: حدّق.
(٢) وسيماؤك: منظرك وهيئتك.
(٣) فكاكًا: خلاصًا.

وأنواعِ العلم وفروعِ المَعْرِفَة؟! لقد أردتُ أن أكونَ كاتِبًا وسأكونُ ولكنْ . . كيفَ يا صديقي؟!

كيف السبيلُ إلى الخروج من إطاري القَضائيِّ؟ كيفَ أَنْشُرُ فَنًّا دون أن أَتَعَرَّضَ لسخرية الزُّملاءِ، وخيبة أمل النائبِ العام، وفجيعَةِ[1] الأَهْلِ والخُلَصاءِ؟ . . . آه يا صديقي! . . . مَعْذِرَةً! . . .

إنّي أُفكّرُ الآنَ تفكيرًا سخيفًا . . . هذا كلامٌ غيرُ خليقٍ بِفَنّان! . . . ولكن هل أنا فنّان؟ أَتُراها القُبَعَةُ السوداءُ هي التي كانت تملأُ رأسي بهذه الأوهامِ!؟ لقد خَلَعْتُها، كما تعلمُ، منذُ زمنٍ بعيد، وها أنذا اليومَ أَتّشِح[2] بالوِسامِ الأحمرِ الأخضرِ . .

لم أعُد أسمع أحدًا يَنْعَتُني بالفن . . . ربما قلتَ لي: يكفي أنْ تُصْغي إلى الصَّوت الصاعد من أعماق نفسِك! . . . أجَلْ يا صديقي، ولكنَّ نفسي الآنَ يَنْخُرُ فيها الشَّكُّ، وما عُدْتُ أُصَدِّقُ لها كلامًا! . . .

وا خجلاه! . . . لستُ أدري كيف يتكلمُ هذا الكلامَ رجلٌ يتشبّثُ بالفَنِّ . . . حقًا . . . يجب أنْ أُؤْمن بالفنّ . . الإيمانُ بالفنِّ هو «التعويذَةُ»[3] التي تفتحُ لي الطريقَ . . . إني أُؤْمنُ بـ «أبولون»[4]، أؤمن بإله الفنِّ الذي عَفَرْتُ جبيني[5] أعوامًا في تراب هيكله! إنّه ليَعلَمُ كم

(١) الفجيعة · المصيبة
(٢) أتّشح · أتزَيّن.
(٣) التعويذة: حجاب أو نحوه يُتّقى به الشرّ.
(٤) أبولون: إله الفنّ عند الإغريق.
(٥) عفَرتُ حبيني بالتراب · مرّغته فيه

جاهَدْتُ من أجله، وكم كافَحْتُ وناضَلْتُ وكَدَدْتُ! باسْمه أَخوضُ المعركةَ الكُبرى، وأُنازِلُ كلَّ مُجتمعٍ، وكلَّ حياةٍ، وكلَّ عَقَبَةٍ تحولُ بيني وبينَ فَنّي، الذي مَنَحْتُهُ زهرةَ أيّامي التي لن تعود.

توفيق الحكيم

(بتصرف)

الفصل الثّالث عشر: من إخوانيّات ميخائيل نعيمة

أديب لبنانيّ، ولد في بسكنتا سنة ١٨٨٩م. درس في لبنان وفلسطين وروسيا. أسَّسَ مع جبران خليل جبران ورشيد أيوب ونسيب عريضة وغيرهم الرابطة القلمية في الولايات المتحدة الأميركية. يمتاز أدبه بأنّه إنسانيّ النزعة يصوّر واقع الحياة، مع ميل شديد إلى المُثُل، وتطلّع إلى الحريّة، واعتبار الإنسان قيمةً في ذاته.

من مؤلّفاته «الغربال» و «المراحل»، و «كان ما كان»، و «البيادر». وقد صدرت مؤلفاته كاملةً في تسعة مجلّدات كبيرة.

* * *

إلى يوسف الحوراني

بسكنتا ١٩ حزيران ١٩٧٣ م.

عزيزي الأستاذ يوسف الحوراني:

كتابك الجديد «لبنان في قِيَم تاريخه» كان لي بمثابة رحلة شيّقة عبر الأجيال السّحيقة. وكنتَ قائد الرحلة المحنّك ودليلها الأمين.

عدتُ من رحلتي وبي شيء من الاعتزاز بهذه الرقعة الصغيرة التي

أنتمي وتنتمي إليها، والتي اسمها لبنان، وبالأثر البالغ الذي كان لها في أكثر من حضارة قديمة، وبخاصّة في الحضارة الهلّينية.

إنّ عملك يا أخي لا ينفع اللبنانيّ وحده. بل ينفع كلّ مَن شاقه أن يتقصّى جذور الشعور الدينيّ ودوافع النموّ الانساني في كلّ مكان وليس في حوض الأبيض المتوسط لا غير.

بارك الله في فكرك وفي قلمك.

* * *

إلى وليم الخازن

بسكنتا - لبنان ١٦ حزيران ١٩٧١ م.

عزيزي الأستاذ وليم الخازن:

قلّما أثمر برنامج إذاعيّ مثلما أثمر البرنامج الذي كنت تتولاه برفقة الأستاذ نبيه اليان تحت عنوان «كتاب وأديب». وخير شاهد على ذلك هو كتابكما «كتب وأدباء» الذي كان حصيلة ذلك البرنامج. وقد حاورتما فيه نحو الأربعين من أدباء لبنان في مؤلف بعينه من مؤلفات كل منهم.

والحوار يجريه مذيع أو مراسل مع أديب هو فن قائم في ذاته. وأهم ما فيه أن يعرف المذيع أو المراسل شيئًا عن حياة الأديب الذي يحاوره، وعن اتجاهه، وأن يحسن اختيار الأسئلة التي يطرحها عليه. ويبدو لي انك ورفيقك كنتما موفّقَين غاية التوفيق من هذا القبيل.

أحسنتما جدًا إذ أتيتما في بداية كل حوار على نبذة عن حياة الأديب

المحاور. وهكذا بات كتابكما يصلح مرجعًا للدارسين الذين يهمهم تتبّع الأدب عندنا في المرحلة التي يتناولها كتابكما. فلكما الشكر وعليكما السلام من المخلص ميخائيل نعيمه.

* * *

الى الشاعر فؤاد الخشن

عزيزي الأستاذ فؤاد الخشن:

«سوار الياسمين» مجموعة من الصور والأنغام الشعرية التي لا تحتاج إلى منجّمين لفكّ ألغازها وطلاسمها.

وهي تكوّن جسدًا له عموده الفقريّ، فلا يبدو مخلّعًا لا تستقيم له حركة إلا بسحر ساحر أو بأعجوبة من مسيح.

لكنني، والمجموعة كلها تدور حول المرأة، كنت أتمنّى لو أنها تناولت منها أكثر من مكامن الشهوة. فالمرأة أكثر من انثى. انها انسان. والانسان صورة الله. والمشاعر التي تزخر بها حياة الانسان في شقّيه المذكر والمؤنث لا تنبع كلها من الشهوة الجنسية.

أشكر لك تلطّفك بإهداء نسخة اليّ من مجموعتك، وأسلّم عليك أطيب السلام.

* * *

الى خالد الراوي

بغداد

١٩ أيلول ١٩٦٤ م.

عزيزي خالد الراوي:

إليك أجوبتي على الأسئلة الثلاثة التي تطرحها عليّ:

١- تتطور الأساليب النثرية والشعرية بتطور الإنسان، والزمان. ولن يكتب لأي ضرب من النثر أو الشعر أن يسود إلى الأبد.

٢- جوابي على هذا السؤال هو أن أدب الجنس، كما تعالجه طائفة من الكتاب المعاصرين، أدب رخيص. لأنه لا يرمي إلى تحرير الإنسان من غرائزه البهيمية، بل يشدّ به إلى مستوى دون البهيمة. فالبهيمة لا تمارس العملية الجنسية إلاّ لقصد نبيل. وهو تجديد النسل. أما الأدب المتهتك فيحاول أن يجعل من تلك العملية محورًا تدور عليه حياة الرجل والمرأة، لا بقصد تجديد النسل، بل للمتعة الحيوانية. إنه أدب يهدم الانسانَ بهدمه إرادته للتفوق على البهيمة في نفسه.

٣- الرواية نبتة جديدة في تربة الأدب العربي. ويبدو أنها أخذت تتأصل وتتأقلم. فلنصبر عليها قليلاً قبل أن نطالبها ببلوغ مستوى الروايات العالمية.

* * *

إلى خالد الراوي أيضًا:

١٠ تشرين الثاني ١٩٦٤ م.

تسألني عن رأيي في أمور ثلاثة.

أدب اللامعقول. الشعر العربي ومتى يصبح عالميًا. والحب.

وعندي أن رأيك في هذه الأمور هو أحرى باهتمامك من رأيي، أو رأي أي انسان غيري. فإذا وجدت في أدب اللامعقول ما يهزك فاهتز. وإذا نفرت منه فدعه وشأنه. فالأدب، كالطعام: ما يهضمه وينتفع به الواحد قد لا يهضمه ولا ينتفع به الآخر.

في الشعر العربي، قديمه وحديثه، ما يصلح أن يقرأه الناس في كل مكان، وكل لغة، إذا أتيح له من يحسن ترجمته.

عندما تحب - وأرجو أن تحب - لن تسألني: أهذا هو الحب؟ وما رأيك فيه؟ لأنك ستحب بقلبك لا بقلبي. وإذا اشترك الفكر في الحب فسيكون فكرك لا فكري.

* * *

إلى عارف الريِّس
لبنان

بسكنتا - لبنان، ٥ حزيران ١٩٤٧ م.

عزيزي عارف الريس:

قرأت رسالتك اللطيفة فراقني منها روح فنّي متعطش إلى الجمال،

وهمّني اهتمامك بالفنّ من موسيقى ورسم وأدب. وليس عندي ما أتمناه لك أكثر من أن تجعل حياتك جميلة ليأتي فنك جميلاً. فالفنّ لا يكون صادقًا وجميلاً إلاّ إذا صدر عن مصدر جميل وصادق. وما «ليوناردو» في قصته «لقاء» غير مثال الفنّان المدرك أنَّ تطهير النفس من أدران الشهوات الخسيسة شرط أساسي لنقاوة الفنّ وسموّه. وأمّا شهلبة ومهلبة فما القصد منهما إلا أن أبيّن أنّ من طهُرت سريرته كان في مستطاعه أن يؤاخي حتى الحيوان. وأن تفعل اهتزازات روحه وأشواقه فعل الحميّا بل فعل السحر حتى في الثعالب. وإني لأرجو لك أن تبلغ من فنك مرتبة تأتي مصداقًا لما أقول.

وعليك أطيب السلام من الداعي لك بالخير.

* * *

إلى عارف الريّس أيضًا:

بسكنتا – لبنان ٢٨ شباط ١٩٥٣ م.

سلام عليك وبعد، فقد تناولت رسالتك الضافية في ما دعوته «السّمواقعيّة» ومعها رسم من ريشتك يمثّل بعض ما تعنيه. وكنت قبل ذلك قد تلقيت منك رسالة مقتضبة تحمل إليّ تهانيك بالعام الجديد. فالشكر لك.

لا أكتمك اني لقيت اكبر المشقة في تفهّم رسالتك «السمواقعيّة». لا من حيث التعقّد في معانيها ومراميها فقط. بل من حيث خطها. فقد أشكلت علي قراءة الكثير من كلماتها. وهكذا فاتتني منها عبارات وعبارات.

إني أؤمن بإطلاق منتهى الحرية لكل فنّان في فنه. وأؤمن أن تقدير أيّ فنّ مردّه في الدرجة الأولى إلى الذوق. ولا إكراه في الذوق ولا منطق. انه لنتيجة حتمية لعوامل خفيّة لا تقع تحت حصر أو بصر. فمصادرها أبعد من مجال الفكر والمنطق. لذلك أرى التفلسف فيها ومحاولة الكشف عن جذورها ضربًا من الجهد المرهق الذي لا طائل تحته. ولذلك أمرّ «مرور الكرام» بهذه «المدارس» الفنيّة الحديثة التي تنبت وتتكاثر كالفطر. فلا أشغل بها بالي. ولا أحاول مماشاتها في ما تدّعيه من تجريد وتجرّد في ما تنظّمه لذاتها من «فلسفات» تبرّر بها وجودها. ولا أسعى مثلها أن أدخل في صميم «اللاوعي» لأعرف ماذا يجري هناك وكيف. فإذا كان من المشقة بمكان ان نفهم ما يصدر عن وعينا، فأنّى لنا أن نحلل ثم نفهم ما يصدر عن غير وعي منّا؟

هذه الكلمات أسوقها إليك لعلّها تخفف من حدّة «انخطافك» بالسمواقعية. فترفع كابوسًا عن أفكارك المرهقة ونفسك المضطربة.

* * *

وكتب إليه أيضًا:

بسكنتا - لبنان ١٠ شباط ١٩٥٨ م.

لو لم يكن الفصل شتاء لأجبتك: تعال في الحال. إلاّ أن الشتاء بثلجه وصقيعه يحدّ كثيرًا من حرية التنقل - حتى ضمن البيت. فنحن مكروهون على ملازمة الوجاق الذي منه الدفء والأمان من البرد، والذي لا مجال حواليه للخلوات والتأملات. فهو ملجأ أهل البيت وملجأ الزائرين.

أمّا بعد أن يعتدل الطقس ونصبح في غنى عن الوجاق - أي نحو أواخر نيسان وأوائل أيار - فأهلاً وسهلاً بك. وما عليك إلاّ أن تتصل بي تلفونيًا لنتفق على موعد.

* * *

وكتب إليه أيضًا:

بسكنتا - لبنان ١٨ آب ١٩٥٩ م.

أرجو أن تكون بخير، وأن تكون غارقًا في العمل إلى ما فوق أذنيك.

وبعد فكنتَ وعدتني بأن ترسل إليّ نسخة فوتوغرافية عن الصورة التي رسمتها لي لعلّني أستطيع استعمالها في كتابي. وها هو الكتاب قد بات الآن في المطبعة. فهل لك ان توافيني بالنسخة الموعودة في اقرب وقت؟

* * *

الى المطران أبيفانيوس زايد

دعاني المطران ابيفانيوس زايد - وكان يومذاك مطران الطائفة الأرثوذكسية في حمص (سوريا) - لإلقاء خطبة التخريج في مدرسة الصبيان ومدرسة البنات التابعتين لأبرشيّته. فكانت الرسالة التالية:

بسكنتا - لبنان ٨ تموز ١٩٣٣ م.

عزيزي المطران أبيفانيوس:

في يدي سبحتك، وأمامي رسمك مع المنتهيات، وفي قلبي حلاوة الأيام التي قضيتها تحت سقفك مغمورًا بلطفك وأنسك وكرمك. عدت إلى

بيتي مساء الاثنين ولم اتمكن من الكتابة اليك قبل اليوم إذ كان عندي ضيف عزيز هو الاستاذ اميل ضومط. ولقد سألني عنك وكلّفني أن ابلّغك سلامه. فهو لا يزال يذكر اجتماعنا في مرمريتا. اليك نسختين من صورتي لأجل المدير والمديرة. وقد اكون تأخرت في ارسالهما. فليعذراني. كلمتي للبنات قد صدرت في عدد «العاصفة» لهذا الاسبوع. وكلمتي للصبيان في عدد الخميس من «الأحرار». ولو كان عندي اكثر من نسخة واحدة من كلتيهما لبعثت بها اليك.

لتكن لي حصة صغيرة من صلواتك وتأملاتك. وثق أنني أطرب لكل خير تأتيه، ولكل مقصد شريف تقصده، وأتمنى لك عافية الجسد وقوة الروح.

* * *

الفصل الرّابع عشر: من إخوانيات نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطينيّ الأصل، سوريّ المولد والجنسيّة، لبنانيّ الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣م./١٣٤٢هـ.، وتخرَّج في الجامعة السوريّة بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسيّ ما بين السنة ١٩٤٥م والسنة ١٩٦٦م. يُعتبر من كبار المجدِّدين في الأدب العربي المعاصر. لقِّب بـ «شاعر المرأة». واشتهر بالغزل.

* * *

أيّتها الصديقة.

الآن تعودين من معسكر التدريب، وأنت كالرّاية المتعبة، كالزورق العائد من رحلة مجد..

جلستُ أدخّن.. وأتأمّلك قطعة قطعة.. كما لو كنت لا أعرفكِ من قبل.

عيناك النقيّتان كأمطار ليلة إفريقية، قميصك المعقود الأكمام الذي تركت عليه البندقية بقعًا من الزيت أطهر من زيت المعابد.. أطهر من الطهر..

غطاء الرأس الجامح على شعر فوضى.

لباسكِ المعجون بذرّات التراب، ورؤوس الشّوك، ورائحة الأرض.

جوربك الصوفيّ الخشن، راحتاك الملوّثتان بشحم الزّناد، حذاؤك الآكل من جبين الصّخر يترك على أرض الحجرة قطعًا من طين يابس هي أثمن ما تضمّه حجرتي من تحف.

أرأيتِ كيف تنتقل بلادي إليّ. كيف تتحوّل بلادي إلى ذرّة غبار على قميص شجاع.

قعدتُ أتأمّلكِ وأنتِ كزهرة اللوتس الوحشيّة.. ليس على فمك شيء.. ومع هذا فهو أروع من كلّ شيء.. ذلك الثغر الراقد كنصف كرزة حمراء.. لا يعرف من الطعام غير الهواء.. والشمس.. وجيرة العصافير..

قعدتُ أتأمّل حسنك من زاوية جديدة. أنا أمام تجربة جمال لم أمرّ بها من قبل. لم يمرّ بها هذا الشرق من قبل.

كانت المرأة في بلادنا قطعة من قطع الآثار.. ليرة ذهبية ملفوفة بالقطن.. تعويذة كتبها شيخ لا يعرف الكتابة. ثمّ انفكّ السّحر يا صديقتي وخرجتِ من قطنك.. من الصّدَفة الباردة المغلقة. وها أنت تجلسين أمامي أغنية بطولة تقرع نوافذ الشمس.

مضى عهد كانت فيه أكبر مغامرة بطولية تنفّذها امرأة هي أن تذهب إلى حمّام السّوق..

أَمَا سمعتِ قول أحد الفقهاء «تخرج المرأة من بيتها مرّتين.. مرّة إلى بيت زوجها.. ومرّة إلى القبر..».

تأمّلي هذا المخطّط الذي رسمه ذلك السخيف. تأمّلي هذا البرنامج الحافل الذي وضعه لتنقّلك، وتنقّل زميلاتك.

مشواران فقط.. واحد إلى دار الزّوجيّة.. وواحد إلى دار الأبديّة. المهمّ أنّ صاحب القول قُبر في المكان الذي أعدّه للمرأة.. وخرجت المرأة من قوقعتها الكلسيّة.. قفزةً واحدة.. إلى العراء.. إلى ملاعب الرّياح والشموس..

أحاول الآن أن أدرس أشواقي من جديد. أن أبحث قضيّة الحبّ. حبّي لك.

قد تقولين: ما نفع هذا ونحن لم نتغيّر؟ هذا خطأ. إنّني أشعر بتغيّر جذريّ في لون حبّي.. في نكهته.. في طاقته.. في اتّجاهه..

ترى هل تختلف قضية الحبّ بين حالة السلم وحالة الحرب؟

هذا سؤال تحرّك في جبيني أكثر من مرّة.

أنا أقرّر أنّ شيئًا ما قد وقع فأعطى جمالك مفهومًا جديدًا وأعطى حبّي لونًا آخر..

إنّني معجب مثلاً بهذه الكدمة الصغيرة التي تركها الزّحف على التّراب فوق مرفقك. معجب برائحة اللاشيء.. نعم برائحة اللاشيء تصدر عن فتحة قميصك المتعب. معجب بأظافرك التي كسرها قتال الخنادق واحدًا.. واحدًا.. معجب بما حملتِ معك من معسكر التدريب من تعب.. وغبار.. وقطرات عرق..

أعود إلى الكدمة الصغيرة المرسومة على مرفقك.. هي حرف مجدٍ

يستحقّ أن يُعبد.. إشارة بطولة يُصلّى لها..

لم يعد يهمّني صفاء البلّور في الأصابع الشمعيّة.. أصبحتُ أبحث عن معنى الأصابع قبل الأصابع.. عن بطولة اليد قبل اليد.

هكذا هدمت المعركة كلّ مفاهيمي الجماليّة. فلا تستغربي أن أزهد بكلّ ما تعبق به خزائنك.. من أصفر.. وأسود.. وليلكي.. وأقف ساعاتٍ أمام بقعة زيت تركتها بندقية على قميص مجنّدة من بنات بلادي..

ماذا؟ هل غيّرت معركة بور سعيد حواسّي أيضًا.. إنّ رائحة العطر التي كانت تنسف أعصابي من جذورها في الصّيف الماضي لم تعد ذات موضوع. أشياء كثيرة كانت تزلزل وجودي في زمن السلام لم تعد تفعل بي شيئًا..

وفنّي، كجمالك، تغيّر يا صديقتي بحركة داخلية تلقائية.. مدّ أظافره ونشر ريشه كما يفعل الطائر أمام خطر داهم بدافع من غريزته..

لقد أخذت القصائد مكانها في الخنادق.. وتحت الأسلاك الشائكة، وحاربت بجميع ما يحمل الحرف من طاقة وقوة وتفجير..

البنادق.. والقصائد.. والعيون السّود.. كلّها أصبحت فحمًا مشتعلاً في ليل المعركة.

فيا صديقتي.. يا ذات القميص المعقود الأكمام.. والشعر الفوضى، والفم المصبوغ باللاشيء.. والكدمة الصغيرة التي تُضمُّ وتُعبد..

سلامٌ عليكِ.

نزار قباني

الفصل الخامس عشر: من إخوانيات ميشال عاصي

أديب لبناني (١٩٢٦م - ١٩٩٢م) تخصَّص باللغة العربية وآدابها. ونال شهادة الدكتوراه فيها. درّس في كلية التربية في الجامعة اللبنانيّة، ثمّ أصبح رئيسًا للجامعة.

له عدّة مؤلّفات، منها «في النقد الأدبي»، و«سائح في باريس»، و«المعجم المفصل في اللغة والأدب» (بالاشتراك مع الدكتور اميل يعقوب)، و«مذكراتي».

ومن مذكراته نقتطف ما يلي:

* * *

في أوائل كانون الأوّل خطر لي أن أرسل بطاقات معايدة إلى بعض الأصدقاء، وأن أستهل بعضها بالشعر مما تيسّر وجادت به الحال. فخصّصت إحداها بالصديق الزحليّ الشاعر نزيل باريس، جوزف الصايغ، جاء فيها:

صائغ الدُّر

يا صَائِغَ الدُّرِّ أَحْلامًا عَلى الورَقِ وَزارِعَ القَفْرِ أَطْباقًا مِنَ الحبقِ
وعاصِرَ الخَمْرِ أَكْوابًا مُعَتَّقَةً وَحاضِنَ الشَّمْس والأَقْمارِ وَالأَلَقِ

وَمُبْدِعَ الشِّعرِ أكوانًا مُلَوَّنَةً   وَمُطْلِقَ النَّثْرِ نَسْرًا طافَ في الأُفُقِ
بالله!؟ هَلْ عَوْدَةٌ إلى زُحَيْلَتِنا   بعد الطَّوافِ بأرض التِّيه والأَرَقِ
وَهَلْ لِقاءٌ لَنا، والشَّمْسُ غارِبَةٌ   والليلُ يدنو من الجَفْنَيْن وَالحَدَقِ

حمل الشاعر الصائغ هذه القصيدة وذهب قاصدًا مدينة «برن» في سويسرا لتمضية فترة الأعياد في ضيافة الصديق المشترك، سفير لبنان هناك، فؤاد الترك.

وفي أواسط الشهر نفسه، وتحديدًا في ١٤/١٢/١٩٩١ تلقّيت في أوتاوا (كندا) رسالة مشتركة من السفير الترك والشاعر الصائغ مشفوعة بقصيدة جوابيّة من نظمهما المشترك أيضًا!

تقول الرسالة:

«ويا عزيزنا ميشال،

الزمان: منتصف الشهر الثاني عشر من العام التاسع قبل الألفين ميلاديّة.

المكان: حيّ «مُورَيْ» في مدينة برن حيث ينعم فؤاد بجمال سويسرا، وهدوئها، وبراحة العقل والقلب والجسد.

الموضوع: تلاوة قصيدة موجّهة من ميشال عاصي إلى جوزف الصائغ والردّ عليها.

ملاحظات:

١- نظمت هذه القصيدة بالتعاون والتكاتف والتضامن بين جوزف وفؤاد.

٢- نسجّل للتاريخ والمؤرّخين أنها المرة الأولى التي حاول فيها فؤاد نظم الشعر.

وُلدتْ هذه القصيدة في سفارة لبنان ببرن قبل عشرة أيام من ولادة المسيح، وسبعة عشر يومًا من ولادة العام ١٩٩٢.

السبت ١٤/ ١٢/ ١٩٩١

جوزف الصايغ وفؤاد الترك

الرسالة كانت بخط فؤاد. والقصيدة بخط جوزف. وهذه أبياتها:

وَرْدُ البَال

مَا مِثْلُ قَوْلِكَ يَسْتَغْلي بِهِ الحَبَقُ ... فإنَّ قَوْلَكَ وَرْدُ البَالِ وَالعَبَقُ
وَمَا سِوَاكَ لِشِعْرٍ إنْ عَرَضْتَ لَهُ ... يَصْفُ القَصِيدُ وَيَخْفِقْ قَلْبُهُ الوَرَقُ
إنْ أَعصُرِ الخَمْرَ في دَنّي وَفي قَدَحِيْ ... لأَنْتَ في الرُّوحِ أَنْتَ الذَّوْقُ وَالأَلَقُ
اللهَ! اللهَ! يَا عَاصِي عَلى قَلَمِي ... قَدْ قَصَّرُ الشِّعرُ حَيْثُ الشَّوْقُ يَسْتَبِقُ
هَذا فؤادٌ! وإيّانا! وأَنْتَ هُنا! ... وَتِلْكَ زَحْلَةُ: طَابَ الشِّعْرُ وَالْعَرَقُ
وَنَحْنُ في الأَرْضِ لا أَرْضٌ تُؤلّفُنا ... وَذَاكَ لُبْنَانُ ضَاقَتْ دُونَهُ الطُّرُقُ
والعُمْرُ يَمْضِي، وَصِرْنَا في أَوَاخِرِه... ... ما أَبْعَدَ الصُّبْحَ إمّا شَارَفَ الغَسَقُ
تَعَال! عجِّلْ! فَمَا إلّا عَلى نَهرٍ ... تُحيا الحَيَاةُ، وَفيهِ تُطْفَأُ الحُرَقُ
وَمَا عَلَيْكَ إذا ما غربةٌ صَدَقَتْ ... مَا دامَ زَحْلُ هِيَ العَيْنانِ والحَدَقُ!

وبعد بضعة أيام، تعرّفت أثناء عيديّ الميلاد ورأس السنة ١٩٩٢، إلى عبدالله عبيد، مسؤول القسم العربيّ في جامعة أوتاوا، وأحد أبناء الكورة

الميامين من طيبي النفس، والأخلاق الكريمة، والثقافة العالية، وإلى عقيلته الفاضلة، فشعرت كأنني أعرفه منذ الزمن الأبعد، لتقارب طبعينا، وتناسب مزاجينا، فوافيته بالقصيدة الآتية:

إلى عبدالله عبيد

عَبْدَ الإِلَهِ! لِغَيْرِ الله مَا خَضَعَتْ ... شُمُّ الأُنُوفِ، وَغَيرَ الله لم تَهَبِ
لم نَأْتَلِفْ عَبَثًا! في الحَقّ كُنّا معًا ... في الرَّكْبِ نَمْضِي مَعًا، أُنشُودَةَ الحِقَبِ
دُسْتورُنَا في مَغَاني الأُنْسِ عَنْدَلَةٌ ... وَفي رِياضِ النَّدامَى خَمرةُ العِنَبِ
أَحْلامُنا في ذُرَى الأَفْلاكِ نَزْرَعُها ... وَنَحْصِدُ الزَّرْعَ في صَفْوٍ دَني لَجِبِ
كمارِدِ الجِنّ في يُمْنَاهُ عَاصِفَةٌ ... وَفي اليسارِ كِتَابُ المَجْدِ وَالأَدَبِ
كَالْوَرْدِ نَحْنُ شَذًى، كالشَّوْكِ سَيْفُ أَذًى ... كأَيْلَةِ الحُبّ وَالتَّغْرِيدِ وَالعَجَبِ
مَا ضَرَّنا وَطَنٌ في القُطْبِ نَسْكُنُهُ ... مَا دامَ للأَرْزِ نُعْلي شَامخَ القِبَبِ!

وما كادت رسالتي تصل إليه حتى كنت دخلت إلى المستشفى في الثاني من شباط ١٩٩٢ مصابًا بالمرض العضال، الذي ما زلت أعاني منه حتى اليوم، مصارعًا آلامه، مستقويًا بالأمل وبالذكريات على وهن الجسد، وهزاله. فكتب إليّ يقول:

«أخي ميشال. ما إن التقتْ روحي روحَك حتى تعانقنا في دنيا الأدب والشعر. . . كأنّهما توأمان!. لقد صُعقنا للخبر المزعج، وأَضنانا الأَلَم فَخرست الألسن. أملنا أن تكون تلك غيمة عابرة، فتعود عندلةٌ ولا أَجملَ، وتلتئم حبّات العقد، وتكتمل الأعراس. إليك أبياتًا أوحى بها العهد بيننا. فاقبلها وإن قصّرت عن اللحاق بك، حبيباتٍ نَسَجها قلبي الجريح:

كَانَ لِقَاءٌ لَنَا بِالأَمْسِ نَذْكُرُهُ ... زَادَ الحَنِينَ إِلَيْهِ رَوْعَةُ الأَدَبِ

نَسْرٌ يُحلِّقُ في الأَجْواءِ مُرتَفِعًا ... لَا يَخْشَى نَارًا، وَلا يَرْتَاعُ مِنْ سُحُبِ
لا الحربُ تُرْعِبُهُ، لَا السُّقْمُ يُرهِبُهُ ... العِزُّ شِيمَتُهُ، مُخضَوضِرَ العُشُبِ
في الجوِّ جَوَّالٌ، في الْبَحْرِ طَوَّافٌ ... في البرِّ مِقْدامٌ «صَنَّاجَةُ العَرَبِ»
وَيْحَ اللّيالي تُصِيبُ بُلْبُلًا غَرِدًا ... يَهوَى الجَمَالَ قَصِيدًا صِيغَ في الهُدُبِ
بِالرُّوحِ تُفدَى كَرِيمًا عَزَّ مَحتِدُهُ ... فانْفُضْ وَبَالًا وَهذا مُنْتَهَى الأَرَبِ
بِئْسَ الزَّمانُ الذي أَضْنَاكَ يَا كَبِدِي ... فَارْجِعْ لَتُحْيِي لَيَالِي الأُنْسِ وَالطَّرَبِ

أوتاوا في ١٦ شباط ١٩٩٢ م.

* * *

الفصل السّادس عشر: بين ناصيف يمين ونظمي أيوب

هو ناصيف يزبك يمّين. ولد في عين دارة (لبنان) سنة ١٩٣٩ م. درس في عين ورقة، ثمّ عند الآباء اليسوعيّين. مجاز في الأدب. مارس الصحافة، وله أقاصيص وترجمات، وعدّة كتب في اللغة.

أمّا نظمي نجيب أيوب فمن مواليد عين الحور (الشوف - لبنان) قصّاص وشاعر. درّس الأدب العربيّ في كبريات مدارس لبنان. له رواية «حجر الزاوية».

* * *

كتب نظمي أيوب إلى صديقه ناصيف القصيدة التالية:

خير ما عندي إلى أحبّ مَنْ أُهدي...

نَشَدتُ الدّفءَ في كَنَفِ المِلاَحِ   لعلَّ الحُسنَ يُزهِرُ في الجراحِ
فَعلقَمَ كلُّ حُسْنٍ في ضُلوعي   وحنظَلَ مجدُ حوّاءٍ بِرَاحي
تُرَى عَذْبُ المسرّةِ في احتضارٍ   وعرسُ الأُنسِ ضربٌ من نواحَ
أمِ الشّدوُ الجنينُ صريعُ دهرٍ   تمنطَقَ باغتصابٍ وافتِضَاحِ؟!
هَبِ القلبَ المدمَّرَ طَود عزمٍ   تعالَى في الصّواعقِ والرّياحِ
هَبِ الفكرَ الكنيزَ شموسَ فهمٍ   موَّزعةَ العُقولِ بكلِّ ناحِ

هَبِ العزمَ الصَّليبَ سيوفَ حقٍّ تلظَّتْ فالخوارقُ في اجتراحِ
أمَا للعقلِ والقَلْبِ انكفاءٌ وَوَهنٌ في مضاميرِ الكفاحِ؟!
فديتُكَ يا ضميرًا في ضميري أنا شوقُ المُسهَّدِ للصَّباحِ
إلى لُقياك يَهفُو كلُّ نَبْضٍ كما تهفُو الأيائلُ للقراحِ
إلى كأسٍ، وعذبُ القولِ خمرٌ وروضٌ ضَجَّ بالعَبَقِ الأقاحي
كَتبتُ مشَاعري والقلبُ يُملي صَدَقتُكَ ما أتيتُكَ لامتداحِ
وخُلقُكَ ما اشتَهاهُ الذَّوقُ لُطفًا ونفسُكَ طِيبُها عِطرُ السَّماحِ
وعقلُكَ بَيِّناتٌ مُعجزَاتٌ وآياتٌ مِن الدُّرِّ الصُّراحِ
وشِعرُكَ، ما مَجَالُ النَّسر إلّا كَخَفْقِ الحرفِ يَسمُو بالجَنَاحِ
يُصَعِّدُ سَمهَريًا في ائتلافٍ لقطفِ النَّجمِ، أو كَبْحِ الجَمَاحِ
يَشِفُّ اللَّفظُ كي تَعرَى المعاني فيا طِيبَ المُعرَّى والوِشَاحِ!..
كذا نهجٌ لذوقٍ عَبقريٍّ يُقَعِّدُ للجَهابذِ والفِصَاحِ
صَفَاءٌ في سموٍّ واقتِدَارٍ وأعماقٍ تَعِزُّ على الفَلاَحِ
إذا كانَ البُعَادُ المُرُّ غُرْمًا وصحراءً تَرَامتْ دونَ واحِ
فحُلمُ النَّفسِ غُنْمٌ بالتِقاءٍ ورُغمَ البينِ طيفُ الصَّاحِ صَاحِ

نظمي أيوب

* * *

فردّ عليه ناصيف يمين بالقصيدة التالية مُطرِّزًا اسمه «نظمي أيوب أخي الوحيد».

إلى الأخ الحبيب نظمي أيوب

ن نسيبَ الرّوحِ يا كأسي وراحي ويا بُرءًا يُبلسِمُ لي جراحي

ظ ظَمِئتُ إلى طِلاكَ فجُنَّ شوقٌ   وحُمَّ الخمرُ في شَفةِ المِلاحِ
م مُنَى قلبي عرفتُكَ في بكوري   رجا نفسي وجدتُكَ في رواحي
ي يذوبُ الوَجْدُ وَجْدًا حينَ تَنأى   وتقرُبُ.. «فالخوارقُ في اجتراحِ»
أ أَنا شدوٌ؟!.. أيا وترًا شَجِيًّا   هُدَى أَنغامِهِ يَطوي نُواحي
ي يموتُ الهمُّ عندي حينَ تبدُو   ويصحُو الحُلمُ في «الزُّهرِ الصِّباحِ»[1]
و وأهفُو، فالمكارمُ دَافِقَاتٌ   على القَسَمَاتِ تنضَحُ بالسَّمَاحِ
ب بنُبلِ الخُلقِ عطرُ الذَّوقِ فَوْحٌ   بهِ عبَقَتْ تَلافيفُ الرِّياحِ
أ أَذاعَتْ في سماءِ الوعدِ طيبًا   بهِ انتشَتِ الزَّنابِقُ والأَقاحي
خ خمائلُ عهدِنا الأَوفى ارتعاشٌ   وأيكُ الصَّفوِ يخطرُ بالوشاحِ
ي يدلُّ على السُّوى فالرَّوضُ زهوٌ   وأَطيارٌ تُبَرِّحُ بالصُّداحِ
أ أَخَا الإلهامِ والشِّعرُ اصطخابٌ   وحَمحَمةُ الخَيالِ بكلِّ سَاحِ
ل لَهُ الفُرسانُ تقتحمُ السَّرايا   فتُلوي دون عُضْبٍ أو رماحِ
و وحيدًا فَابْقَ في الميدانِ تَرنُو   إليكَ عكاظُ باللَّحظِ الصُّراحِ
ح حميتَ ذمارَها فالوحيُ عبدٌ   مطيعٌ والعُروشُ إلى انفساحِ!..
ي يلجُّ بيَ الوفا لأقولَ حقًّا   وما قولُ الحقيقةِ بامتداحِ:
د دعائي: فَابْقَ بدرًا في مسائي   وشمسًا يستنيرُ بها صباحي

ناصيف يمّين

* * *

(١) أولاد الشاعر أيوب.

الفصل السّابع عشر: متفرّقات

كتب أبو الشيص إلى رجل كان وعده مخدَّة فأبطأت عليه:

يا صديقي وأخي في كلِّ ما يعرو وشِدَّه
ليتَ شعري هلْ زرَعتمْ بذرَ كتّانِ المَخدَّه

* * *

أهدى بعض العمال إلى دعبل بن علي الخزاعيّ برذونًا زمِنًا[1] فرده وكتب إليه:

وأهديتُه زَمِنًا فانيًا فلا للرُّكوبِ ولا للثمنْ
حملتَ على زَمن شاعرًا فسوفَ يكافي بشعرٍ زمِنْ
أبا الفضل ذمًّا وغُرمًا معًا فما كنتَ ترجو بهذا الغبنْ

* * *

ووعد رجل دعبلًا نعلًا يهديها إليه عند قدومه من الحج فأبطأت عليه فقال دعبل الخزاعيّ:

وعدتَ النعلَ ثمَّ صَدَفتَ عنها كأنَّكَ تَشتَهي شَتمًا وقَذفا
فإنْ لم تُهدِ لي نعلًا فكُنها إذا أعجمتَ بعد النونِ حرفا

* * *

(١) الزمِن: العجوز الضعيف.

حدَّث أبو أحمد عن أبيه عن أحمد بن أبي طاهر قال: كتب إليَّ أبو علي البصير يستهديني بخورًا كنتُ أهديتُ منه إلى بعض إخواني، والأبيات:

يا شقيقي ويا خليلي إباءً   المرجَّى لكلِّ خيرٍ وميرِ
أنتَ من أطيبِ الأنام بخورًا   غيرَ أنّي شمَمْتُهُ عندَ غيري
وهو جمٌّ لَدَيْكَ فابعثْ بدرجٍ   منهُ إن لم أكنْ تعدَّيتُ طَوري

فكتبتُ إليه:

قد بَعَثْنَا إليكَ منهُ بدرْجٍ   وأزَرْناكَ منهُ أطيبَ زورِ
بين ندٍّ وبينَ عودٍ مطرًّا   ما لهُ مشبهٌ بنجدٍ وغورِ
أنتَ منه أزكى وأطيبُ عُرْفًا   وهو أزكى من كل طيبٍ ونَورِ
ما تعدَّيتَ فيه طوْرَك عندي   فتبخَّرْ منهُ بأيمنِ طيرِ

* * *

وحدَّث أبو أحمد عن أبيه عن أحمد قال: حدّثني أبو دعامة الشاعرُ قال: كتب العتابي إلى مالك بن طوق يستزيره ويستهديه ويدعوه إلى صلة الرحم والقرابة بينه وبينه، وكان مما كتب: إنّ قرابتك مَنْ قَرُبَ منك خَيْرُه، وإن ابن عمك من عمَّ نفعه، وإن عشيرتك من أحسن معاشرتك، وإن أحبّ الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك، وإن أهداهم إلى مودتك من أهدى إليك، ولذلك أقولُ:

ولَقَدْ بلوتُ الناسَ ثمَّ سَبَرْتُهُمْ   وَوَصَلْتُ ما قطعوا من الأسبابِ
فإذا القرابةُ لا تُقرِّبُ قاطعًا   وإذا المودَّةُ أقربُ الأنسابِ

* * *

كتب اسحاق بن ابراهيم الموصلي إلى بعض الجلّة يستدعيهِ:

يَوْمُنا يومٌ لَيِّنُ الحَواشِي وطَيِءُ النَّواحِي وَسَمَاؤُنا قَدْ أَقْبَلَتْ وَرَعَدَتْ بِٱلْخَيْرِ وَبَرَقَتْ. وَأَنْتَ قُطْبُ السُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ. فَلَا تُفْرِدْنَا فَنَقِلَّ. وَلَا تَفْرُدْ عَنَّا فنَذِلَّ.

(للقيرواني)

* * *

كتب أبو العباس الغسَّاني كاتب صاحب افريقية لبعض الأصدقاء:

سِرْ إِلَى مَجْلِسٍ يَكَادُ يَسِيرُ شَوْقًا إِلَيْكَ، وَيَطِيرُ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ جَوَاهُ حَتَّى يَحُلَّ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَلِلَّهِ دَرُّ كَمَالِهِ إِنْ طَلَعْتَ بَدْرًا بِأَعْلَاهُ، وَجَمالِهِ إِنْ ظَهَرْتَ غُرَّةً بِمُحَيَّاهُ، فَهُوَ أُفُقٌ قَدْ حَوَى نُجومًا تَتَشَوَّقُ إِلَى طُلُوعِ بَدْرِهَا، وَقَطْرٌ قَدِ ٱشْتَمَلَ عَلَى أَنْهَارٍ تَتَشَوَّقُ إِلَى بَحْرِهَا، لِتَسْتَمِدَّ مِنْهُ. فَإِنْ مَنَنْتَ بِٱلْحُضُورِ، وَإِلَّا فَيَا خَيْبَةَ ٱلسُّرُورِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلزَّيْنِ:

قَامَتْ لِغَيْبَتِكَ ٱلدُّنْيَا عَلَى سَاقِ ... وَٱلْكَأْسُ أَصْبَحَ غَضْبَانًا عَلَى ٱلسَّاقِي
وَالرَّاحُ قَدْ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا تَطِيبَ لَنَا ... حَتَّى تَرَى وَجْهَكَ ٱلزَّاهِي بِإِشْرَاقِ
وَأَعْيُنُ ٱلزَّهْرِ نَحْوَ ٱلْبَابِ نَاظِرَةٌ ... وَقَدْ صَغَتْ أُذُنُ ٱلسُّوسَانِ لِلطَّاقِ
فَٱسْمَحْ بِجُودِكَ فَضْلًا بِٱلْحُضُورِ لَنَا ... مَا دَامَ شَمْلُ مَسَرَّاتِ ٱلْهَنَا بَاقِ
فَلَوْ دُعِيتُ إِلَى هٰذَا سَعَيْتُ لَهُ ... يَا حَبَّذَاكَ عَلَى رَأْسِي وَأَحْدَاقِي

* * *

كتب الصاحب ابن عبَّاد إلى صديق لهُ:

مَجْلِسُنَا يَا سَيِّدي مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، مُعَوِّلٌ فِي شَوْقِهِ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَبَتْ

رَاحَتُهُ أَنْ تَصْفُوَ إِلَّا أَنْ تَتَنَاوَلَهَا يُمْنَاكَ، وَأَقْسَمَ غِنَاؤُهُ لَا يَطِيبُ حَتَّى تَعِيَهُ أُذُنَاكَ. وَنَحْنُ لِغَيْبَتِكَ كَعِقْدٍ ذَهَبَتْ وَاسِطَتُهُ، وَشَبَابٍ قَدْ أُخِذَتْ جِدَّتُهُ. وَإِذَا غَابَتْ شَمْسُ ٱلسَّمَاءِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَدْنُوَ شَمْسُ ٱلْأَرْضِ مِنَّا. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَحْضُرَ لِتَتَّصِلَ ٱلْوَاسِطَةُ بِٱلْعِقْدِ، وَنَحْصُلَ بِكَ فِي جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ، فَكُنْ إِلَيْنَا أَسْرَعَ مِنَ ٱلسَّهْمِ فِي مَمَرِّهِ، وَٱلْمَاءِ إِلَى مَقَرِّهِ، لِئَلَّا يَخْبُثَ مِنْ يَوْمِي مَا طَابَ وَيَعُودَ مِنْ نَوْمِي مَا طَارَ. وَٱللهُ أَعْلَمُ.

(للنواجي)

* * *

لمَّا حُبِس إسماعيل بن عمّار الأسديّ كتب من الحبس إلى ابن أخ له اسمه مُعان أبياتًا أوّلها:

أَبْـلِـغْ مُـعـانًـا وإخْـوَتَـهُ ... قَوْلًا وما عالِمٌ كَمَنْ جَهِلا
بِـأَنَّنِي والـمُـصَـبُّـحـاتِ مِـنّـى ... يَـغْـدونَ طَـوْرًا وتـارَةً رَمَـلا
لَـخـائِـفٌ أنْ يـكـونَ ودُّكُـمُ ... إيّايَ بَـعْـدَ الـصَّـفـاءِ قَدْ أَفَلا

فأجابه ابن أخيه بقوله:

يا عَمِّ عُوفيتَ منْ عذابهِمُ الذُّ ... كرِ وفارقْتَ سِجْنَهُم عَجِلا
كيفَ تَشْكُو بني أَخيكَ وَقَدْ ... أَرْسَلَ مَنْ كانَ قَبْلَنا مَثَلا
إبْـدَأْهُـمْ بـالـصُّـراخِ يَنْهَزِمُوا[1] ... فَأَنْتَ، يا عَمِّ، تَبْتَغي العِلَلا

* * *

كان الشيخ عبد الحميد البغدادي، المعروف بابن الصبّاغ، شاعرًا،

(١) يشير إلى المثل القائل: «ابدأهم بالصّراخ يُفَرّوا»

وأديبًا من أدباء بغداد في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. وكانت بينه وبين شعراء لبنان مراسلات ومساجلات. ومن ذلك قصيدة أرسلها إلى المعلم بطرس كرامة مجيبًا عن رسالة، قال فيها:

تَبَسَّمَ الزَّهْرُ عَنْ أَنْفاسِكُمْ فَسَرَى ... مِنْ طيبِ ذكركمُ نَشْرٌ فَأَحْيانا

فَمِنْ هناكَ عَشِقْناكُمْ ولَمْ نَرَكُمْ ... والأُذْنُ تَعْشَقُ قبلَ العينِ أَحيانا(١)

* * *

دعا الشاعرَ خليل مطران أحدُ أصدقائه إلى مأدبة غذاء، وكتبَ على البطاقة «حمل وادع ينتظركم على ضفاف البردوني». لكن خليل مطران كان مريضًا، وقد مُنع عنه الطعام إلى حين، فردّ على دعوة صديقه بهذه الأبيات:

أوشَكْتُ منْ جُوعي أُهَلِّلُ عِنْدَما ... حملَ الرسولُ إليَّ أنباءَ الحَمَلْ

فَبِحَقِّ وِدِّكُمُ لو أنّي قادِرٌ ... لَدَرَجْتُ أنحو نَحْوَكُمْ دَرجَ الحَجَلْ

لكنَّني لا أستطيعُ وإنّ لي ... عذرًا ولي من رفْضِ دعوتكم خَجَلْ

دمْتُمْ ودامَ الأَفْضَلُونَ ضُيوفُكمْ ... في غبطةٍ أبَدَ الأبيدِ وفي جَذَلْ

* * *

(١) يلاحظ أنّ عجز البيت الثاني ضمّنه الشاعر قصيدته، وهو من قول بشار بن برد.

يا قومُ أذني لبعضِ الحيِّ عاشِقَةٌ ... والأذن تَعْشَقُ قبل العينِ أحيانا

الفهرس